

طبعة محدودة

الراعية



جميلة العلايلي

حقوق الطبع والنشر محفوظة



التركة الأدبية لجميلة العلايلي

www.gamilaelalaily.com

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام استرجاع أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو عن طريق التصوير أو التسجيل أو غير ذلك دون إذن خطي مسبق من الناشر


أم كلثوم
جميلة العلايلي

عن جميلة العلايلي

جميلة العلايلي، ولدت في مدينة المنصورة على ضفاف النيل، حيث تشبعت روحها بعذوبة الماء وبهاء الطبيعة، نشأت في كنف عائلة متوسطة الحال، محافظة على التقاليد الأصيلة، إلا أن عقلها كان طليقًا منذ الطفولة، يتساءل ويتأمل، ويرفض القيود التي تفرضها الأعراف على المرأة.

بدأت تراسل مي، فتدور بينهما أحاديث ورسائل مليئة بالمعاني العميقة والأسئلة الإنسانية الكبرى، فتعلقت بها وتبنت روحها الفكرية، وتعلمت منها كيف يكون الأدب نافذة للحرية. كانت مي بمثابة المعلمة والملهمة التي أيقظت فيها شغف الكتابة.

في تلك الفترة، كانت هدى شعراوي، الزعيمة النسائية والمناصرة لقضايا المرأة، قد شقت طريقها كصوتٍ يدعو إلى تحرير المرأة في مصر، وإلى منحها حقوقها في العمل والمشاركة المجتمعية. وجدت جميلة في هدى مثالاً للمرأة المستنيرة المتمردة على القيود.

انضمت جميلة إلى جماعة "أبولو" الأدبية التي أسسها الشاعر أحمد زكي أبو شادي، فكانت من أوائل الشاعرات اللواتي انضممن إلى هذا الصرح الأدبي، الذي مثّل ثورةً في الشعر العربي، جامعًا شعراء الرومانسية ومتبنيّي الحداثة.

كانت جميلة، بفضل روحها المفعمة بالحرية، مؤسسةً للعديد من الجمعيات الثقافية والاجتماعية، فأسست "جامعة أدباء العروبة" بهدف دعم الأدباء الشباب ونشر نتاجهم الأدبي، وأسهمت في إنشاء "مجمع الأدب العربي" الذي أصبح منبرًا للإبداع الأدبي.

وفي ميدان الشعر، أصدرت جميلة ثلاثة دواوين شعرية تميزت كل منها بأسلوب مختلف. ديوانها الأول، "صدى أحلامي"، الذي صدر في عام ١٩٣٦، جاء حاملًا بين طياته مزيجًا من التأملات الرومانسية في الحب والجمال والحياة.

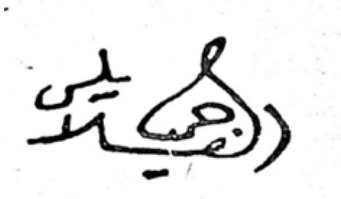
لم تقتصر إسهامات جميلة على الشعر فحسب، بل امتدت إلى الرواية، إذ كتبت عددًا من الروايات التي عبرت من خلالها عن قضايا اجتماعية وروحية. يمكن تصنيف رواياتها حسب الموضوعات التي تناولتها: فقد كتبت عن الروحانية والتصوف، والمرأة والمجتمع، والحب والطبيعة.

وفي مجال التأملات، ألفت جميلة كتبًا من نوع خاص، تمزج فيها بين السرد والروحانية، مثل "أنا وولدي" و"أرواح تتآلف"، حيث تتناول قضايا فلسفية وإنسانية، وتغوص في عمق النفس البشرية بحثًا عن المعاني الخالدة للوجود.

أما عن تأثيرها، فقد مثلت جميلة العلايلي أحد الأصوات الأدبية الرائدة في مصر والوطن العربي، إذ كانت من أوائل النساء اللواتي واجهن المجتمع بأدبهن، وحملت على عاتقها دورًا في تحرير صوت المرأة ودفعه ليصبح مؤثرًا في المشهد الثقافي.

وفي حياتها اللاحقة، اعتزلت جميلة الحياة العامة تدريجيًا، حيث انسحبت من المجتمع وانقطعت عن الحوارات الأدبية، واتجهت نحو التأمل والتصوف، حيث ركزت على الكتابة الروحية التي تهدف للارتقاء بالنفس وإيجاد السلام الداخلي.

في عام ١٩٩١، رحلت جميلة العلايلي عن الحياة، تاركةً وراءها إرثًا أدبيًا وروحانيًا عظيمًا، وما زالت أعمالها شاهدة على تجربة أدبية فريدة لامرأة امتلكت شجاعة الكلمة وصدق الروح، ليبقى صوتها في الأدب العربي خالدًا.



الراعية

جميلة العلايلي

١٩٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من...

الأرواح الطائرة

النفوس الشاعرة

القلوب الخافقة

البسمات الطاهرة

الدموع الصافية - أخذت الأغا

من...

توجع الشاكي

أنين الباكي

رجاء المظلوم

فجيعة المكلوم

أماني المحروم - فهمت المعاني

فإليك أبعث رنين تجاوبي

جميلة العلايلي

الراعية

يا رمز جبريل في الدنيا وعائشة بين الأنام بقلب ملؤه جمر
ودعت دنياك كالنساك راغبة عن الوجود وعيش كل شر!
ودعت أحلامها في غير ما أسف ماذا دهاك؟ ألا أمر له سر؟
كيف ارتضيت حياة الفقر هان وكيف أغراك ذاك المهمه الوع
عل المراعي التي طابت مغارسه سعى إليك بها الإيناس والبشر
أتسمعين ثغاء في جوانبها أم تسمعين غناء، بعضه سحر؟
ومن عجائب ما شاهدت راعية تقسو عليها الليالي... وهي تفتر!
أتلك راعية في القفر ضاربة أم روضة رف فيها الزهر والنور
قد لفها النور في أبهى غلائله وزانها المغريان... النبل والطهر

* * *

يا ربة الغنمات البيض طالعة بين المروج كما قد يطلع الفجر
دنياك، دنياك ما أندى مخاضره وما أحب رباها، إنها شعر!
كأنما أنت إذ تبدين عاطرة روض تنفس في أنحائه الزهر

* * *

يا ربة الغنمات البيض تكلؤها عين السماء ويزكو عندها البر
قفر حياتك لكن حين ألمسها يكاد ينشق روضاً ذلك القفر
وحيدة أنت في دنياك راضية بما تجيء به الأقدار والدهر
يا حبذا القفر دهراً للتي سئمت كل الأباطيل ممن ودهم غدر!

همسات عابرة

يظن البعض أنني أبث آرائي في خفة الطائر على ضوء شاعريتي وراء كل خيال يتراءى لي من خلف الغيب المجهول

وفي الواقع إن كل ما أكتبه أعتقد أنه حقيقة أكيدة. تلمستها وأحسست بها عن طريقي أو طريق معارفي وأقاربي من الجنسين. فإذا اتهمني البعض بالمبالغة في الخيال والحس. فلأنه لا يعرف الحياة التي عشت فيها أنا أو لمحتها عن كثب أحياناً، تجوب فيها أنفاس الرجال والنساء من كل لون ومن كل بيئة

ولست من الغرور بحيث أزعم إنني بلغت مرتبة ممتازة من الإدراك والمعرفة. ولكنني أحاول دائماً أن أتعرف الحقيقة الكامنة في قلب كل مرئي وسيان عندي جذب الكائن قلبي أو عقلي لأنني استخدمهما معاً في تشريح كل ما يقع تحت ناظري أو ما يبلغ مسمعي

فإذا أحسست أن الشيء اجتاز جنبات نفسي وأن الطبيعة أعارته أصابعها الخفية ليلعب بها على أوتار القلب. أخذتني غفوة أشبه بالحلم فآوى إلى صومعتي منفردة بمشاعري ومداركي في ذلك التيه اللامرئي الذي يسميه الناس خيالاً، وأسميه أنا سلم المعرفة، حتى إذا نبهني ناقوس الحياة بدأت أستعيد الصور التي مرت أمام ناظري مصغية إلى الهاتف الخفي الذي يلقي على عقلي دروس الحكمة في غير مواربة،

وكالطفلة الساذجة المتطلعة إلى كل مجهول استمع إليه وأتأمل مشاهد الواقع الجميل الذي يرسمه بأصابعه النارية أمامي.

فإذا استوعب عقلي ما سمعه وجاوب قلبي ما بلغه بدأت أرسمه بقلمي في غير وشي ولا زينة.

ولولا اعتقادي بأن ما أصوره حقيقة راسخة لما استطعت مطلقاً أن أكتب حرفاً واحداً. لأن تصوير الحقيقة أيسر منالاً من رسم الخيال، وقد يتنافر الأمر مع نزعتي الخيالية الوثابة، ولكنني أتخذ الخيال كغلالة ألف بها الحقيقة الرهيبة لتكسبها روعة وجمالاً ولتملك حس القارئ في هوادة ولين

وإذن فأنا أتخيل لأكسب الحقيقة جو الاحتمال، ولكني أنقل للناس صور الحقائق بأمانة، وصدق، والرغبة في بسط الحقيقة واضحة تقتضي الاعتماد على البساطة، لذا أحرص عليها سليمة من عبث الخيال وظله لتبدو في جلاء وصفاء

والحق إنني أبذل جهداً كبيراً في الاهتداء إلى أقوم سبيل في الحياة، وطالما يعييني الجد ويخونني التوفيق!؟

كل سبيل توهمت أنه المعبر البالغ للغاية يتعرج بعد شوط، ينثني ويدور، وتستقيم ليتكسر ثم يتشعب في وجه الساري فإذا النهاية كالأفق الخادع

كذلك الناس...

أتفرس في الوجوه فألفاها مرايا كدرة لا تظهر الظلال، وأتسرب من العيون إلى أعماق الصدور فأتخبط ضالة في الغياهب لأنها خرائب، وأتوه في ظلمات الضمائر لأنها مغاور.

فارتد في جذع ارتداد الضال.

... ...

إن ما أكتبه هو صورة ما في ذهني وصيغة صحيحة لما في قرارة نفسي وشبه تام لضميري فأنشر رأيي غير حافلة بنوع أثره في الغير ويستوي عندي الرضا عنه أو النفور منه

الرأي كالشمس المشرقة تنير الكون ولكنها فضاحة، وكالصاعقة تنقض ولكنها تسحق وتحرق.

الصراحة حلاوة ومرارة، وللناس شأنهم فالحق عاجز عن إرضاء من ألف المداجاة والكذب والتغرير.

أعرف أذهاناً خصبة عامرة بالمعرفة ولكنها كنوز محبوسة خشية من لوم اللائم أو رهبة من غضب الحاكم.

وحبس الرأي فيه اختناق بل هو الانتحار البطيء (باسفكسيا) الجبن.

ولي في الحياة أمل، لهذا لا أختنق وأنشر رأيي في غير تهيب. لعل نفسي عامرة بالتفاؤل المطلق لأنها تحدثني بحمل المشعل أمام الجماعة الناهضة إلى طريق الخير.

ومن المحقق إنني ضعيفة والمهمة شاقة عنيفة، ولكن سمو الغاية يغري ونزاهة القصد تقوى الرغبة في المغامرة

هل أفلح؟... لم لا...

لم لا أكون قطرة من مزن الخير؟...

لم لا أتقدم الصفوف للتنشيط ثم أترك لغيري تعبيد السبيل. والوصول إلى الهدف؟...

لم لا أصيح... فيساعدني الصدى على نشر الدعوة في قصف كالرعد فيبلغ إلى الآذان الصماء صيحة مجلجلة وإلى أعماق الضمائر هزات عنيفة...

إلى الميدان:

فالغاية سامية، والقصد نبيل، والعمر قصير.

... ...

عندما قدمت "الأميرة" للقارئ جعلتها تقدم نفسها دون أن ألفت نظر القارئ إليها. لعلمي أنها صادقة في تعبيراتها صريحة في كل ما تبديه

وأنا لا أتعمد أن أقدم هذه الأقاصيص إلى القراء بدعاية من المنطق، إنما أدع الخواطر ترسم صور الحياة في غير كلفة لتبلغ ذهن القارئ في غير عناء.

والمحقق الذي يقرر رأيه ثم يبحث عن الأدلة لتدعيم هذا الرأي يكون تصرفه واضح الخطأ فكذلك الكاتب الذي يبتدئ عمله بوضع نظريته ثم يتخيل وقائع "موضوعه" يسلسلها في صورة قصة لتؤيد حوادثها رأيه ولتثبت نتائجها نظريته.

أما الذي ينشد السلامة من الخطأ في المقدمات والنتائج فحتوم عليه الانسياق مع الوقائع الصحيحة ليكون رأيه وليستنتج العبرة أو الحكمة.

والمعروف أن أكثرية قراء القصص ليس لهم الصبر على دقة البحث والفحص لتمييز الخطأ من الصواب، وهذا الفريق يدفعه الكاتب التاجر إلى السبيل الذي رسمه وينتهي به إلى التسليم بصحة رأيه الخاطئ.

أما أكثرية الذين لهم الكفاية من المعرفة فقد ألفوا المطالعة في غير فحص بسبب الكسل عن إرسال العقل للكد في البحث؛ يطالعون تصفحاً للتسلي بحوادث القصة.

وهذا التراخي يمكن الكاتب الضال من الاستتار ويضمن له النجاح فيزيد وثوقه في رأيه وفي منطقه فيضل معه القراء

والبحث في أحوال النفس وعن أنواع المؤثرات الطارئة فيها بحث تجب العناية به من أهل المعرفة عنايتهم بشتى شئون الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فكلها لازمة وكل ناحية منها متممة للبقية. وقلب الإنسان ناحية غامضة لأن العاطفة تتأثر بصورة غير منظمة ولأنها تدأب على الوثب في صمت بتأثير الغريزة العمياء فيندفع الإنسان إلى تصرفات عملية هي التي نراها ونلمس نتائجها.

والقصة التحليلية هي التي تحاول إنارة تلك الناحية الغامضة مستعينة على البحث بعلم النفس فترد الأسباب إلى المسببات ثم تشرح الغامض بالتعليل العلمي

والتصور هو الأثر الواضح الذي يهدي إلى نوع المؤثر النفسي في العاطفة وسبب نشاطها وناحية اتجاهها ثم الغاية التي تثب إليها.

فإذا كان البحث متجهاً إلى الوجهة الصحيحة يكشف مصدر التصرف والباعث عليه وصورة النفس ويرشد إلى روح الغريزة إرشاداً يمكن من الإصابة في تشخيص المرض فتتيسر معالجته

... ...

ومن المسلم به أن الكاتب يقع كغيره تحت المؤثرات في النفس أو العقل حيث تطغى قوتها عليه في حياته الخاصة وفي تصرفاته، ويندر وجود الكاتب الذي يسلم من تلك القوى الطاغية أو يتحصن من عدوانها ليكون تفكيره وبحثه في حرية واستقلال ويكفي ما ينشر للكاتب من آراء ونظريات للتمكن من معرفة نفسيته ونوع غريزته فبينما هو يحاول التحليل بالنقد أو بالتعليق أو بالتعليل إذا هو يكشف في غفلة منه عن نوع فكره ومعدن نفسه.

... ...

والقارئ يعرف أن شوط الحياة كله دراسة لمن يريد الانتفاع من التجارب، والمطالعة تعليم لمن يحاول البحث والمقارنة والاستنتاج، وكل مطالعة بدون فهم وإدراك وفحص مطالعة عقيمة ضائعة، فإن

من يبحث يجد، أما الاعتماد على الصدفة أو على حسن الظن فإنه الكسل والإهمال فلا تكون غرابة إذا قضى الكسول كل حياته في الانتظار ثم التذمر من سوء الحظ أو من الحرمان

لولا البحث ما بلغ العالم إلى هذه الحضارة، ولا وصل العلم إلى ما نرى من المكتشفات والمخترعات التي أفادت البشرية

والبحث في نواحي النفس المظلمة يفيد العالم ككل بحث علمي إذا كشف عن ناحية من هذه النواحي الخفية المجهولة

ورجل الاقتصاد الذي يبحث في ناحيته لا يفضل عمله عمل كاتب القصة الذي يبحث في النفس والعاطفة، بل عمل الكاتب أدق لأنه يبحث عن الحقيقة في الظلام بينما يعمل رجل الاقتصاد في ضوء البيانات والأرقام.

وتصدر تصرفات الناس عن النفس والعاطفة، فالتوفيق في كشف هذه الناحية المجهولة يعاون على تنظيم التصرفات فتنتظم الحركات الاجتماعية وتقل مشاكلها.

وإذن فكتابة القصة ليست هنة من الهنات، ولا هي مجرد رغبة في التسلية وإضاعة الوقت، فإنها عمل شاق له خطره وقيمته ونتائجه.

لا زال بين الناس من يستهين بهذا النوع من الإنتاج بسبب العجز عن إدراك قيمته الاجتماعية

ولست أكتب لهذا الفريق ولا آبه لآرائهم فإنني كشاعرة مفكرة تقاضيت حقي كاملاً بما نعمت به من متع التفكير والبحث والمعرفة

والإحساس

الراعية

لم أنم في تلك الليلة تحت تأثير شعور غامض نبه حواسي حتى السحر، نادتني أمي: "جميله، قد أذن الفجر". وكأن جبريل بصوته الملائكي ناداني فصحوت وصليت

ولما تطلعت من النافذة أرقب الحياة وهي تصحو رافعة من على هيكلها النوراني رداء الليل، أحسست بأن أنفاسها اليقظة رفت علي فنبهتني وأنعشتني وأشعرتني بحلاوة الحياة...

هرولت إلى أمي كعادتي مرتمية على صدرها فعانقتني وقبلتني.

وقالت:

طابت حياتك

هنا لمحت الحياة تتكلم بلسان أمي فابتسمت ثم بكيت... بغير صوت...

فعادت تقبلني ثم نادت أخوي: رفعت، أنور... وقامت إليهما تهزهما وتنبههما إلى الصلاة.

أدى رفعت الصلاة مسرعاً وتباطأ أنور ثم صلي، ما عرفنا الإيمان إلا بفضل إيحاء أمي وما تذوقنا حلاوة الاطمئنان إلا بجهدها.

ودفعتني نشوة السحر إلى الخروج لأتنسم عبير البكور شادية بأغاني البهجة مستقبلة الشروق مع الطيور

ونيل المنصورة في الصباح الباكر صورة أصيلة للربيع الزاهر، وما كدت ألمح الجزر تناديني برمالها المستسلمة الوسنانة حتى لبيت النداء... كأم فتحت ذراعيها وضمتهما على وحيدتها بحنان يتجلى في رعشة الجسم الهادئ استقبلتني رمال الجزر المذهبة الملساء.

والماء يغمرها من كل الجهات فترفعني بذراعيها لتحميني من الغرق، قصيدة الأم ترتسم هنا...

النيل يحتضن الجزيرة ويحميها من الطوفان لتحرص على النبت والثمار

والجزيرة تحتضنني كأنها تحرص على حياتي لكي أعيش للغاية المرسومة لي منذ الأزل

حنان... حنان... يتجلى في كل مشهد طبيعي في ذاك الصباح الساحر.

كل شيء أمامي كان يتغنى بأفانين أغنيات الحنان.

... ...

تعاليت يا ربي، أي جمال أسبلته على المنصورة!

ذاك نهر النيل يسري أمامها يحمل سلاف الخلد المشتهي وعلى ضفتيه الأشجار المتلازمة كأنها حراس لا تشكو النصب ولا الضنى، جل ربي حاميها!

سماء واديها صورة لسجل الأبد بدت حروفه في شبه ظلال وأجواء رسمتها ملائكة الفضاء

جل ربي حاميها!

هنا في هذه الدنيا السحرية الجميلة لمحت الراعية تسير مع قطيعها على الشاطئ البعيد ميممة وجهها شطر الضاحية القريبة تتمشى في هدوء واطمئنان وعلى وجهها لمحات البشر والأمان.

راعية في هذا المكان وفي ذاك الوقت الباكر، ما أعجب هذا؟

اتجهت ناحيتها لأتبينها جيداً!

وما كدت أقترب منها حتى تنبهت لوجودي ولا شك إنها كانت في منتهى اليقظة أو لعلها مجموعة من الأعصاب الحساسة لأنني كنت حذرة في مسيري

كانت الشمس قد بدأت تتنفس بحرارة اليقظة فالتهب عرشها وسرت الحرارة في كل كائن حي، ولوحت الراعية بعصاها فاتجه القطيع نحو الطريق الذي أشارت إليه كأنه يفهم لغتها ومعناها...

اجتازت الشاطئ على عجل ثم سارت في طريق المزارع متباطئة رويداً حرصاً على راحة القطيع - على ما أظن - لأنني لمحتها تنظر إليه في حنان وتمر بيدها البضة في رفق على ظهر كل حيوان.

وأخيراً استقر بها المقام عند أرض جدباء بها كوخ صغير دخلت إليه بعد أن استلقى القطيع على الأرض ثم خرجت وبيدها المغزل

وأخذت مكانها بين المرعى مشتغلة بالغزل.

وبعد لحظات قامت في هدوء واتزان وتمشت حتى بلغت شجرة الجميز القريبة منها فهزتها حتى تساقط الثمر فالتقطت منه الطيب وعادت إلى مكانها وبدأت تأكله بنهم ثم دخلت الكوخ وغابت.

فتاة جميله الطلعة وضاحة الجبين ذات شباب غض وحيوية متيقظة لكل نسيم عابر ترعى الغنم وتعيش وحيدة في ذاك الخلاء الموحش!

ما معنى هذا؟!

لم أستطع إدراك هذه الحقيقة الغامضة ودفعني الفضول إلى مصاحبتها من بعيد لكي ألاحظها في حذر من غير أن تلحظني عل لها سراً يتكشف.

بعد لحظة، خرجت من كوخها وأخذت مجلسها بين قطيعها واستأنفت الغزل.

وطاب لي أن أتسلق شجرة الجميز لالتقط بعض الثمر لأنني أحسست بالجوع، شعرت به مبكرة لطول المسافة التي قطعتها، لكنني خفت أن تلمحني وأنا أريد ألا تراني لكي لا تتحفظ فاخترت شجرة بعيدة عنها، وبعد أن تسلقتها جمعت بعض ثمرها في حذر ثم وضعته في قصاصة كانت ملقاة على الطريق وعدت إلى مكاني.

ولما انتهيت من أكل الجميز طوح الهواء بالورقة بعيداً حتى سقطت عليها فتناولتها وراحت تمر بنظرها على سطورها ففهمت إنها تعرف القراءة.

إذن فهي متعلمة أيضاً، فكيف استطاعت أن تعبر محيط الحياة الزاخر بأمواج النظم والتقاليد المرعية لتعيش في كنف الوحشة الهائلة التي لا حد لها، وكيف تمكنت من تحطيم أسوار الأوضاع المألوفة لتقيم لنفسها وزناً في مكان لا وزن له ولا قيمة في نظر المجتمع الإنساني، ثم كيف تمكنت من مغالبة نزعات شبابها الثائر وأهواء صباها المتأججة وارتضت بحياة التقشف والحرمان!

أتراها عذراء كرهت المدنية إثر غدر حبيب، أم أرملة لجأت إلى هذه الوحدة خوفاً من أراجيف أبناء الظنون. أم زوجة خانها الحظ فهربت إلى ذلك الفقر لتجد العزاء في كنف الخلاء؟

سواء أكانت هذه أم تلك فهي فتاة غريبة بلا ريب! إذ كيف يمكن لفتاة ما زالت في ربيع العمر، وهي كما تبدو فطرت على رقة المشاعر وشدة الحساسية، أن تعيش في عالم موحش مليء بالمخاوف والأوهام.

ثم ما لها تجلس في هدوء وطمأنينة كأنها خالية الذهن من كل ما يوجب الفزع والخوف والقلق، وعلى شفتيها ابتسامة كأنها تعبر عن قلبها الصافي وروحها الهفهاف.

قد تكون ابنة فيلسوف تريد أن تجرب نظرية اكتسبت إيحاءها من أبيها فقدمت رفاهيتها قرباناً للمعرفة التي ترتجيها.

أو علها شاءت أن تقارن بين حياة وحياة لتدرك ما خفي عنها من حقائق الكون فتكشف للإنسانية بعض خفايا الوجود.

وقد تكون عرفت أن الوحشة الهائلة والتجرد من المطامع والسكون الرهيب أهون من أباطيل المدنية وأفضل من تهاويل المجموع وأبعد خطراً من مساوئ البشر وألطف من تعسف البيئة وأعدل من ظلم التقاليد.

... ...

ما كاد يبلغ مسمعها تغريد عصافير رفت عليها ثم حلقت بعيداً حتى تهيأت للصلاة، كأن هذا التغريد أذان الظهر في ذلك الفضاء الوسيع، ما رأيت امرأة تصلي عليها مهابة الخشوع ونور الله كهذه الراعية.

كأن ملاكاً هبط من عليائه ليطبع على الأرض خاتم الصلاة في صورة امرأة مؤمنة عابدة طاهرة نقية، تطالع الشروق ببسمة صافية ولهفة بادية كأن الشروق البهيج كلمة الأمن تنطق بها شفتا هذه الراعية.

فإذا غابت الشمس والتف الكون بدثار الحلم تنفست في هدوء كأن الغروب كلمة العزاء ترسم على صفحة السماء في شبه ظلال ملونة بأضواء السحر والجمال، وعلى جبين هذه الراعية كلمات ملتمعة حروفها من نور وبهاء.

وهي لا تنسى أن تسري عن نفسها بالغناء فتغني بغير كلام، كل جانحة فيها تهتز على إيقاع منغم يجاوبه القطيع بالثغاء الهادئ

وهل يطرب القلب ويغني بغير إيحاء حبيب؟

لكأن قلبها عامر بالحب إلى درجة يسع معها ذلك الخلاء المطلق، لو ضمت الخلاء بين جوانحها.

لم يخفني المساء ولم ارتعد لإ يناسي بها واعتزمت أن أقضي شطراً من الليل حتى أرى ماذا هي فاعلة فيه – لكنها اختفت داخل الكوخ فاضطررت للعودة إذ بدأت أحس بوحشة المكان.

... ...

قمت من نومي مبكرة، وفي الواقع لم أنم طوال الليل خوفاً من أن تطويني الغفوة فلا أحس بدنو السحر

وقبل أن يأفل آخر نجم من نجوم السحر كنت قد ارتديت ملابسي وما كاد الفجر يتنفس عن الصبح الوضاح حتى هرولت مسرعة إلى حيث التقيت بالراعية في الأمس، ونسيت ما تتطلبه رياضة الصباح من توازن وانسجام في السير من فرط ما بي من لهفة للقائها.

لم أجدها فخفت أن أكون ضللت الطريق وبعد جهد لمحت كوخها فهرولت إليه. ولكنني لم أرها ولم ألمح أي أثر للقطيع. رحت أعدو هنا وهناك والعشب يحول بيني وبين المرئيات حتى ظننت إنها غيرت مكانها. وبعد تفكير طويل تنبهت إلى إن الشمس لم تبزغ بعد، إذن أما إنها ما زالت نائمة أو هي قد ذهبت إلى مكان بعيد لم تعد منه، وقبل أن أذهب للبحث عنها عن لي أن أتأكد من خلو الكوخ فذهبت في خفة وحذر حتى بلغت الكوخ ونظرت من ثقب بابه.

عادت الطمأنينة إليّ لما رأيتها نائمة وقد لمحت طائراً جميلاً رف على وجهها في خفة ومر بمنقاره في لطف على شفتيها، قبلة ما أعذبها وأنقاها. ثم حوم حواليها فاستيقظت وابتسمت ورفعت إليه ذراعيها ثم ضمتها إلى صدرها كأنها ترد تحيته بالعناق، ثم رفعت رأسها إلى السماء لتشكر الله على رعايته ورضاه.

ولما أيقنت إنها خارجة ابتعدت لأختفي في مكاني الظليل.

وبعد لحظة طرق بابها عابر سبيل فمدت إليه يدها بكوب من اللبن شربه ثم ناولته بعض قطع من الزيد فأخذها دون كلام ونظره عالق بها، ولما ابتعد عنها رفع ذراعيه إلى الله قائلاً: "اللهم امنحها الصحة والإيمان واسبل عليها ستر حمايتك" فشعرت أن ذلك أصدق الدعاء، وقبل أن يتوارى لحقت به واستوقفته ومددت له يدي ببعض النقود فرفض قبولها شاكراً ودعا لي بالخير ثم تابع خطاه.

فوسوس في صدري الشيطان أن أستدرجه وألاطفه لتحقيق غايتي، فتتبعت الرجل دون تفكير وناديته: "أيها الرجل: من يقطن في هذا الكوخ"، فتأملني طويلاً وأظنه شاء أن يعرف دخيلة صدري قبل أن يجيبني، ولما اطمأن إلى نقاء سريرتي ولعل طابع الصفاء المرتسم على شفتي دائماً أفادني قال: "سيدة كريمة تمنح بيمينها ولا تأخذ بيسارها أعني تعمل الخير لغير غاية" فأصابتني هذه الكلمة كالسهم القاتل ودمعت عيناي.

أتراه ألهم ما وراء نفسي... ليتني ما سألته ليضمني إلى قائمتها الخيرة ولما أطرقت لأخفي ألمي ودموعي استطرد الرجل: "جعلها الله موفورة

الخير من الصحة والكرامة. هذه المرأة لا تملك غير القطيع ورغم ذلك تهب الفقراء والمعوزين أمثالي كل ما تملك من بر وحنان" وصمت ملياً ليتنهد ناظراً إلى الأفق البعيد ثم أردف: "وهناك الأغنياء الموسرون يملكون الملايين ويعز على الغني منهم أن يصرف المليم في سبيل الله فإن بذل بيمينه درهماً أخذ بيساره درهمين"

وتنفس المسكين الصعداء واستطرد:

الفقراء وحدهم يا سيدتي هم مرهم جروح البؤساء وهم الذين يخففون مصائب الإنسانية بما يملكون من بر وعطف وحنان لا يشوبه الرياء ولا تبعثه الغاية.

أنظري إلى هذه المرأة التي تعيش على الخير القليل ترعى أغنامها وتغزل أصوافها وتستخرج الزبد من ألبانها وتفعل ذلك لتمنحه راضية وتهبه طائعة إلى كل فقير جائع ومسكين ضال وبئيس حائر ومنكوب شريد، إلى كل من أقصته عدالة الحياة المادية عن نعيم الوجود وقذفت به في بؤرة الشقاء والتعاسة

الفقير وحده يا سيدتي هو الذي يعرف الله وهو الذي يفهمه ويحبه ويخافه ومع ذلك تحرمه الحياة الظالمة نعيم الدنيا الذي وهبه الله منحة شاملة للخلائق

ادخلي المسجد يا سيدتي وانظري عدد الأغنياء والفقراء وقارني، الفقير يترك عمله وهو في حاجة إلى قرش واحد قد

يأتيه في هذه اللحظة ويذهب ليؤدي فريضة الصلاة، والغني يأبى أن يترك خزائن ماله أو مكتبه؟

أرأيت عظيماً دخل المسجد لغير أمر جسيم.

كأن المساجد جعلت للفقراء.

الفقير وحده هو الذي يحب الله ويعرفه

قلت:

"ولابد للأرض من الفقراء لتظل عامرة بالإيمان فلا تندم على الفقر ما دام قلبك عامراً بالإيمان.

وزفر الرجل ثم استطرد:

"المال وحده يا سيدتي هو الذي يولد الحقد والضغينة والكراهية

وأنا لا أريد أن أجرد الحياة منه إنما أرجو أن تصحبه الرحمة ويلازمه العدل والرفق والشفقة"

وصمت ليجفف مدامعه في سكون ونجل.

فالتفت إلى الكوخ فراقني منظر الراعية وهي تغزل، فابتسمت قائلة:

ما أندى قلب هذه المرأة، لا تظن إنها فقيرة، إنها بفضائلها الإنسانية النبيلة أغنى من أغنياء العالمين. إنها تملك ما هو

أعز من كنوز الأرض تملك حريتها كاملة، موفورة الحظ من الصحة والسعادة وراحة الضمير. حسبها راحة نفسها وطمأنينة روحها، وتمنيت في هذه اللحظة أن أكون مثلها!

وأخيراً قلت:

يخيل إلي إنها ليست من سكان هذا المكان

فاقترب مني مطمئناً إليّ كأنه يسر إليّ أمراً وقال:

لقد أخبرني شيخ عجوز كان يمر عليها صباح كل يوم ليأخذ حظه من هباتها إنها قصت عليه حكايتها يوم كلفته بالذهاب إلى بلدتها ليستعلم عن أسرتها بعد فرارها، قال:

إنها من أسرة عريقة وقد نشأت في بيئتها مدللة مكفولة برعاية والديها حتى توفيت أمها وهي لم تبلغ التاسعة من عمرها وتزوج والدها بامرأة أنس إليها واعتقد إنها ستكون كأم حانية عليها. لكن الغريزة لا تقاوم ما دام الشر يغذيها من معين الأنانية لذا لم تستطع الزوجة أن تغالب حقدها وتحب ابنة زوجها ولم يستطع الأب أن يوفق بين الزوجة والابنة وكان الأب مصاباً بضعف الإرادة فاستسلم إلى الزوجة واستخدمت الزوجة هذا الحب لتعذيب الابنة البريئة فبدلت نعيمها جحيماً وسعادتها بؤساً وبسماتها دموعاً وأسلمتها إلى اليأس القاتل

إن صورة الفتاة تذكرها بشبح الشريكة الميتة، وفي كل مساء تهمس في إذن الزوج "ابنتك تعاكس ابن الجيران" وتارة تقول: "ابنتك تخرج في الطريق متهتكة وقد تعقبها شاب إلى الدار حتى تهامس الجيران"، وهكذا في كل ليله تنفث في قلب الوالد سم حقدها ومقتها، فيتأثر الوالد ولا يحكم عقله وقلبه بل يذيق الصغيرة مر العذاب.

وأخيراً شاءت أن تستريح منها فراحت تبحث لها عن زوج كيفما كان حتى وفقت إلى رجل لا خلاق له ومهدت السبيل إلى زواجهما بأقصى سرعة

صعب على الفتاة أن تقضي شطر حياتها الأولى معذبة وشطرها الثاني تعيسة شقية فخرجت هاربة إلى بعض أقاربها في بلد بعيد فاستقبلت بالبشر والترحيب، وبعد أيام شاء قريبها أن يستغل شبابها وقوتها في عمل منتج بدعوى إنه يجب أن توفر لها مالاً خاصاً فوافقت الفتاة، ولم تكد تقبض المرتب بعد أن اشتغلت في مشغل للحياكة حتى بدأ يطالبها بتكاليف حياتها، فلم تمانع وراحت تدفع له مرتب كل شهر دون تذمر أو تململ. فلم يقنع وراح يساوم الرجال عليها.

يعد هذا بأن يزوجه إياها ويظل يطالبه بالنفقات حتى يسأم الأخير فينسحب أو يعتذر هو بدعوى أن والدها سيزوجها بقريب، وهكذا خسرت الفتاة سمعتها وهي بريئة وراحت تلوكها الألسن وهي شريفة!

ثم صعب عليها أن تكون مضغة في الأفواه ورأت الحياة تزداد تجهما وشروراً ووجدت العيش في هذا الجو الخانق موتاً بطيئاً.

ورأت كل ما يحوط بها يحمل شارة الظلم والشر، وكان الألم قد صهر روحها وقوى إيمانها فتركت الحياة الباطلة لطلابها وجاءت إلى حياة الأمن لتعيش بين أحضان الطبيعة الهادئة وحيدة لا يؤنسها غير إيمانها بالله.

بنت عشها من الأغصان وزينته بالأوراق والأزهار، تقتات بالثمر والنبت وتروي عطشها من ماء النهر النمير، تعيش مع قطيعها على أجمل صورة يتناها الإنسان لنفسه بين عشيرته وأهله.

وتنحى الرجل عني متمتماً:

حماها الله

... ...

لا يمكن أن يشعر الإنسان بجمال المكان إلا إذا أحس بخفايا معانيه وجاوب بعواطفه صدى كل أثير فيه، لذا من العسير أن يفهم غير الراعية جلال المكان الذي تعيش فيه، هي وحدها التي تحس بأن الحنان يتجسم في كل مظهر وتشعر بنسمات العطف الخالية من شوائب النفاق ترف عليها من كل جانب، وكأني بها تشعر بأن قلبها

البكر النقي الصافي أسمى من معاني الوجود أو لعله صورة لذلك الذي يسمونه الخلود.

إنها عندما ترفع بصرها إلى السماء أو تتأمل الطير وهو يحلق في الفضاء أو تصغي إلى همهمة الحشرات في الخفاء أو تستمع إلى حفيف الأشجار عند دخول المساء أو ترقب الشروق أو تلمح الغروب - كأنها خلقت لتفهم معنى هذا وسر ذاك فترتسم على وجهها ظلال كل معنى ولمحات كل سر.

تتنفس في طلاقة وتعدو في حرية وتتحرك في غير قيد أو حذر دون أن تخشى النظرات الفاسقة أو تخاف مشاكسة أصحاب القلوب المريضة والنفوس السقيمة.

انقطعت عنها لأسباب قاهرة، وكانت هي وحدها ملء ذهني وخاطري. ولما تخلصت من قيودي جئتها قبيل الغروب وكنت ألفت المكان فلم أعد أخافه كأن حبي لها جعل كل شيء حواليها أحب الأشياء إلى نفسي وبعث في قلبي الطمأنينة والهدوء، جئتها وفي نيتي أن أتعرف إليها مهما كلفني الأمر من تواضع ودهاء وما كدت أقترب من الكوخ حتى لمحت شاباً يتمشى في طريقها وبيده كتاب يمر على صفحاته في عجلة بادية ثم يتلفت حواليه في تمعن بطيء كأنه يقارن بين لمحات الطبيعة البادية وبين كلمات الكتاب المسطورة وظل كذلك حتى لمح عن بعد الراعية وهي جالسة أمام الكوخ تشتغل في الغزل آنا وتحنو على صغار القطيع أحياناً تهدهده وتناغيه بعواطف الأم التي تحبو صغارها أعز ما في الحياة من بر وحنان

لا شك في أن هذا المشهد أدهش الشاب، وقد استرعى نظره إذ توقف عن المسير وأخذ يرقبها ثم تابع خطاه بين الإحجام والإقدام

سلطت الشمس أشعتها الذهبية قبل أن تودع الكون على وجه الراعية ووجه الشاب فاستطعت أن أقرأ خواطر نفسيهما التي كشف عنها الضوء الإلهي وأنا مختبئة في مكاني

هي آمنه مستسلمة، وهو حائر متسائل... يظنها همجية مستأنسة أو يحسبها أنسية متوحشة لأن وقع خطاه المتردد ينبئ عن نفس خائفة راغبة.

ولكن صورتها الهادئة الوديعة وبسمتها المشرقة النقية والشعاع العلوي الذي أفاضه الله عليها، كل هذه السمات كقوة جذب تنزلت من فلك سماوي لتجذب ابن الأرض، فتحفز الرجل في نشاط وقد وثبت الرغبة من مكمنها فدفعته إليها قفزاً على إنه عاد وتراجع ولعله نجل وخاف ظناً منه أن تقدمه جرماً لا تبيحه الرجولة الوقورة وقد تفسره الراعية تفسيراً سيئاً

وعلى ذلك عاد أدراجه مفعم القلب بعاطفتين متناقضتين، الرغبة في تعرفها تدنيه منها والاعتداد برجولته والخوف منها يقصياه عنها، وهمس بصوت مسموع كأن نفسه تجسمت رجلاً أمامه يماشيه:

ما ضرني لو خاطبتها، ألا يحتمل أن تكون هي صحيفة مجلوة تفتح أمام الذهن أبواب الحقيقة اللامدركة بدل الكتاب المعقد الذي يحتاج لقاموس،

وتوقف عن المسير يرقب الكوخ وكان قد قطع مسافة طويلة دون وعي منه فبدا له الكوخ كشارة معلقة بين الأرض والسماء والراعية كنجم بارز وضاء يشير إلى مكان الضوء في الفضاء

وهنا انتابه شعور غامض لا يمكن إدراك كنهه فتوقف مطرقاً. ثم التفت خلفه يتأمله... ثم سار بضع خطوات، ثم تراجع بضع خطوات ثم وقف يرقب الشمس وهي تغرب... ثم راح يتمشى في هوادة وبطء هامساً بصوت مسموع:

يا للشيطان، قد تكون في حماية والد أو زوج أو شقيق، إذ لا يمكن مطلقاً لامرأة حدثة السن ناضرة المحيا أن تعيش وحدها في هذا القفر الموحش!

ثم ضحك ساخراً بغير صوت. واستأنف مسيره، وفجأة توقف والتفت خلفه ثم عاد ميمماً وجهه شطر الكوخ

وأحست الراعية بوجود غريب فانتفضت وتجهم وجهها الذي أكسبته الشمس حرارة الحياة العليا ونقاء الطهر الصافي وشاع القلق في كل نواحيها.

لا شك إنها تخاف أن يكون نفر من أهلها، لذا انتصبت في ذعر وتلفتت في حذر وريبة وبدا لها الخلاء مثل كهف يكاد يبتلعها وتجسم الفزع في كل مرئي وكل صوت بعد أن كانت كل المشاهد حواليها كأطياف تحبوها بالحب والرعاية وكل الأصوات نغمات موسيقية تبدد وحشة المكان وتملأه أنساً

يا الله... أي رعب. أي فزع، أي كارثة ستنزل بها عن طريق ذلك الذي بعثه القدر الغامض!

أحجم الرجل أخيراً وتنحى عن طريق الكوخ وراح يعدو في عجلة كأنه يخاف مطاردة وحش يتعقبه بينما اختفت هي داخل الكوخ بعد أن استودعت القطيع منامته. واختفى كل معنى لامع وعدت من حيث أتيت فلا إليها تحدثت؟ ولا سر ما وراء الغيب أدركت.

... ...

عدت بعد أيام وقد جلست مليكة السماء على عرشها الذهبي مرسلة أسلاك الحياة الحارة إلى الكون النائم ليتيقظ كل حالم.

ولمحت الراعية تروض قطيعها بالقرب من كوخها وكانت تتلفت من حين إلى حين كأنها على موعد مع إنسان، لو لم يرتسم الخوف على وجهها لظننتها مترقبة لحبيب، وما رأيتها شاردة ذاهلة كما رأيتها وقتئذ، ولما استقر بها المقام أمام كوخها كعادتها سحبت بأطراف أناملها المغزل، ولكنها لم تشتغل واستقر بصرها على الأفق البعيد في وجوم الحالمين، وظلت كذلك حتى تنبهت على وقع خطوات "الرجل" الذي اتجه إلى ناحيتها في غير تهيب ووقف أمامها في تأدب دون أن يترك لها مجالاً للاختفاء وبادرها بصوت خشن فيه رنة الصلف والكبرياء:

هل أجد عندك ماء؟

فأسرعت ودخلت الكوخ في خفة الطير الرفيف وقد تورد وجهها حتى كاد الدم يطفر منه ثم عادت وقدمت له إناء به ماء وهي تقول

في ابتسام:

يؤسفني أن الماء غير مكرر بآلة صناعية، إلا إنه نظيف على أية حال وهو مكرر بنواة الثمر فذق مياه الزاهدين.

قالت ذلك بلهجة لا تخلو من عطف ظاهر ورقة ساذجة وعذوبة محببة وتحفظ رزين

فتأفف وأبي هازاً رأسه في اشمئزاز قائلاً:

لا ضرورة، لأنني مريض والطبيب يحرم على شرب الماء العكر، شكراً.

قالت:

آه. تخاف الميكروب.

وابتسمت في مرارة مردفة:

معك الحق، لأن معدة أبناء الرفاهية أضعف من أن تقاوم الطبيعة لتمسكها بأهداب الصناعة، هه... أليس كذلك؟

ونظرت إليه متهكمة ثم استطردت:

إذن خذ كوباً من اللبن.

وأسرعت إلى داخل الكوخ فلم يتكلم ولعله بهت من حلاوتها الساحرة وصراحتها الطليقة ولما قدمت له الكوب تناوله منها شاكراً

محملقاً فيها ليفسر لغزها من عينيها ثم أرخى جفونه ومد يده إليها ببعض دريهمات

فابتسمت في لطف ووداعة قائلة في تعفف وإباء:

المال لطلاب الحياة ولست منهم

قال في جد وأنفة:

ولكن ذلك حقك؟

قالت في جد ورصانة:

احتفظ به وقدمه لسائل محروم يمر بك في الطريق أو اعتبر اللبن تحية هذا القطيع لك لزيارة واديه

قال:

إذن نضع النقود هنا على الأرض ولتكن من حظ من يمر من العابرين!

فحطت شفتيها وهزت كتفيها ولم تتكلم بمعنى: أنت حر

وصافحها وسار في طريقه في صمت ورزانة

ظلت في مكانها تتابعه بنظراتها الساهمة ويدها ما زالت ممدودة كأنها تحس بيده باقية تصافحها

لأول مرة في تاريخ حياتها في هذا المكان يواجهها رجل مؤدب ولأول مرة في تاريخ حياتها يخاطبها رجل في تأدب ووقار بلا غاية...

ما أسمى النبل والمروءة منهما تمتخض القوة المعنوية التي تصون الروح وتبعث الأمل

كيف يقضي السجين أول ساعة ينطلق فيها من السجن

لقد كانت حرة - تشعر بذلك - لكنها كانت تعتقد إنها اشترت هذه الحرية بحياتها كلها، وهي طاهرة. ولكنها تعتقد إنها وحدها خالقة هذا الطهر وحارسته... فما لها الآن تشعر بأن روحها أقدر على اجتياز الآفاق عن ذي قبل، وما لها تحس بأن طهرها أعمق وأبلغ من طهرها في أي ساعة مضت

لقد كانت تعتقد إنه لا يمكن أن يجتمع رجل وامرأة في كنف الطهر ولا يمكن أن يخاطب الرجل المرأة بأسلوب الروح وها هي اجتمعت بالرجل في جو الطهر وحادثها واستمع إليها بصوت الصدق، إذن في الحياة أيضاً رجل طاهر وصدق مكفول

ومرت الأيام تباعاً والرجل يأتي في مواعيد مختلفة يحوم بعيداً كالطائر قانعاً بنظرة خاطفة يلقيها عليها ثم يختفي في قلب الخلاء كما يتلاشى الأمل الحلو الوضاء وهي ترقبه في لهفة مهيئة له كوب اللبن... ولكن عبثاً، وقف القدر بينهما كحاجز لا يمكن اجتيازه.

كانت صورتها الساهمة الواجمة تبعث الشجن في القلب الضاحك

اندفع الروح إلى الروح وحن القلب إلى القلب وتوثبت العاطفة لتعانق العاطفة في غفلة العقل الرزين، فهل تراها آمنت بأنها أحبت ذلك الرجل؟

أنها تشك، وإن كانت لا تجزم أيضاً بأنها نسيته

منهج حياتها لم يتبدل وعطفها على القطيع لم ينقص بل زاد ودأبها على العمل المتواصل لم يعتريه خمول أو ركود، وفي كل صباح تغسل الكوب بعناية وتملأه باللبن ثم تحتفظ به بالقرب منها وتجلس أمام كوخها تتلهى بغزلها ناظرة إلى الطريق الذي جاء منه منذ أيام.

إذن هي ذرة ضائعة في أفق الحب اللامحدود، إما أن تذروها الرياح أو تستقر على زهر عبق يفوح بالشذى المعطر

وأخيراً على غير ارتقاب جاءها يطلب لبناً... وكانت في ذاك اليوم غير متأهبة للقياه أو لعلها تناسته لأنها ارتجفت واضطربت وغابت في الكوخ ثم عادت تحمل إليه اللبن في استحياء لأن كميته قليلة

فأدرك الرجل بفطرته أن عقلها نسج خيوط التناسي ليلقي على قلبها ستار الغفوة الكبرى فقال:

أخشى أن يكون هذا نصيبك

فقالت في لطف:

أبداً. إنما المقدار قليل إذ لم يكن في حسباني إنك حاضر...

وتلعثمت وأطرقت.

فابتسم الرجل واتجه نحو القطيع يداعبه ثم اقترب منها ونظر إليها في سكون أروع من يقظة الإغراء وقال:

ما الذي جاء بك إلى هذه البقاع الجرداء وأنت صبية حسناء؟

فمالت برأسها إلى الأمام في وجوم محملقة في القطيع الذي انقطع ثغاؤه كأنه يتأملهما ويستمع إليهما

ثم قالت:

ما الذي نجنيه من حياة المدنية وضجيجها؟ ما الذي نجنيه من أباطيل الوجود؟ لا شيء بالتأكيد، إذن خير لنا أن نفكر على قدر عقولنا في حياة تكفل لنا بقدر المستطاع الأمن وراحة الضمير.

فضحك الرجل قائلاً:

وإذا كان جميع الناس على هذا الطراز (طرازك التقشفي) فما الذي تجنيه الإنسانية أيضاً؟

قالت:

على الأقل، تخلو من التنابذ والتنافر فترتدع الخلائق عن الخصام والتقاتل!

فضحك طويلاً ضحكة تشبه نغم القدر الساخر منها قائلاً:

وهل تظنين امتناعك عن مشاركة الناس أوضاعهم ورعاية تقاليدهم ومشاركة وجدانهم يغير مجرى الحياة؟

فقاطعته:

طبعاً لا. إنما يسعدني أنا ويطمئنني

قال:

إذن فأنت تلبسين مسوح الزهد إمعاناً في الأنانية

قالت:

وهل يمكن أن يتحرر الإنسان من الأنانية وهي من الغرائز الثابتة فيه. أبداً، إنما يمكن تحديد الأنانية وتوجيهها نحو النور بدل أن تغمرنا في الظلام، فهناك فارق كبير بين إنسان يقتل إنساناً ليسعد نفسه وبين آخر يجلب لنفسه الخير ليتمتع كما يحلو له دون أن يؤذي غيره ولا يكون كذلك الظالم الذي يحل لنفسه الحرام ويحرم على الضعيف الحلال لأنه على الطغيان قادر، ولكي لا يقاسمه بعض متع الحياة. فينتقص حظه

فحملق فيها مشدوها وقد بدأ يتكشف دخيلة صدرها البعيد الغور، وتمتم:

هيه وأخيراً

قالت:

سأعيش هنا حتى نهاية أيامي

قال:

ومع من تعيشين؟

قالت:

وحدي

فصعق قائلاً:

وحدك، وأين أهلك؟

فأطرقت لتخفي مدامعها وغمغمت:

لم يبق لي في الحياة أي قلب حان يهمه أمري ويعني بشأني

فتألم وأحس بالعطف النبيل يجتاز قلبه في سرعة أخف من الأثير ولم يشأ أن يتحدث في هذا الشأن لكي لا يفتح جرحها الدامي ويبعث في نفسها الألم والضنى بعد سكونهما وفهم من لهجة أساها ودموعها إنها يتيمة وحيدة. واغتصب بسمة مريرة قائلاً:

عزاؤك في القطيع جميل! لكن ألا تشعرين بوحشة الوحدة؟

قالت:

قلبي عامر.

قال:

حسن

قالت بصوت أشبه بنغمات حفيف الشجر عندما يداعبه النسيم وقت السحر، فيه رعشة وفيه يقظة تحمل نفحات الحياة في استحياء:

بالحب

فدهش وحملق فيها قائلاً:

وأين ذاك الحبيب

قالت:

معي

قال:

ولكني لم أره؟ لقد جئت هنا كثيراً

قالت:

يخيل إلي إنك تتغابى لتستدرجني؟

وتلفت الرجل يمنة ويسرة كأنه يفتش عن الحبيب المعني إلا إنها لم تدعه في حيرته إذ قالت:

أيمكنك أن ترى الله؟ إنه هو حبيبي ومن أجله جئت هنا وبه أقنع بالحياة على صورتها الراهنة المتواضعة، وعلى نوره أرى العراء بريقاً والوحشة أنساً وبهجة

ثم أطرقت برأسها وقد تندت عيناها بالدموع.

قال – وقد ملكته عاطفة مبهجة –

قد يكون ذلك صحيحاً ولكن لابد لك من تحديد هذا الحب أو تركيزه

فلم تفهم ما يعنيه وضغطت على شفتها السفلى ناظرة إليه في أسف بمعنى إنها حزينة لعدم تفهمه نفسيتها ثم أردفت لتزيده إيضاحاً:

إنني أحب كل كائن لأنني أرى فيه سمة من سمات الله وأدرك منه معنى من معانيه الجليلة.

ثم نظرت بعيداً كأنها تستلهم السماء وأعقبت:

أحب كل الكائنات لأنها تكون في مجموعها القوة الإلهية اللامدركة.

كانت تتحدث وكل خالجة فيها تعبر بوضوح عن صدق إيمانها. وكان في التماع عينيها واختلاج شفتيها معنى صريح لعواطفها الصادقة

وصمتت لتترك دموعها تتم الكلام

فتمتم الرجل بعد طول إغراق بلهجة المريب:

أعتقد أن الحرمان هو الذي دفعك إلى هذا الإيمان

ثم دار بنظره حواليه وعاد يحدق فيها قائلاً:

أصدقيني ألا تشعرين في أعماق نفسك بحاجتك إلى ألف مجهول؟

قالت:

لا والله

وكانت نظرتها كافية لذاك التوكيد لو اقتصرت عليها ثم أردفت:

في أعماق نفسي حلاوة أعذب من الطهر وأنقى من الصفاء وبقدر حرماني من الناس اتصل بالله وهو الذي يملأ قلبي ويكفي بنوره المقدس وحبه الجليل فما عساي أرجو؟ لا شيء بالتأكيد

قال:

ولكنك إنسان لك غرائزك ونزعاتك

قالت:

ماتت هذه الغرائز واختفت تلك النزعات يوم ودعت الحياة غير آسفة. إن الإنسان لا يطلب الطعام ولا يسعى إليه إلا إذا جاع أما ومعدته عامرة بالغذاء فهو دائب على التفكير في شيء آخر وأنا كما قلت لك قلبي عامر بالإيمان، وكياني مغمور بالحس الروحي الذي يبعث في نفسي قوة أعذب من أي شهوة عارضة. لست في حاجة إلى الحب حتى أنشده. ولست في حاجة إلى الأنس حتى ارتجيه...

وهنا أحس الرجل أن كلماتها بلغت شغاف قلبه وأن ذلك المعين الحلو سكب في أعماقه خلاصة السلاف المشتهي.

وعادت تقول:

اسمع... لقد تذوقت كأس المرارة حتى الثمالة وكنت أستشف السم في شراب معسول تقدمه إلى المدنية الزائفة، يوم كان يحاول أن يبتاع الرجل قلبي بكلمة أو يجذبني إليه بفعل... ذقت المر وتلمست العذاب واحترقت عواطفي بنار الجمود آنا والظلم أحياناً، وقبل أن يغمرني الطوفان... قبل أن أفقد قوتي وشجاعتي... وقبل أن يموت قلبي وتضل روحي ويضعف إيماني... هربت

فقاطعها:

كالجندي المخذول في الميدان يهرب من الضعف ولو قاتل حتى النهاية لمات شهيداً أو عاش بطلاً

فضحكت قائلة:

أيقدم عنقه للسلاح ويقول هذا هو الجهاد، لا... ليهرب بقوته كي يحارب عن طريق آخر: ليصرخ بصوت مجلجل ليبث القوة في كل خامد

على أن المرأة يا سيدي لا يشفع لها في الحياة غير قوتها، لو إنني استسلمت حتى النهاية لقالوا امرأة ساقطة، ولا يفكر أي إنسان في سر هذا السقوط ومن الذي حفر الهوة... اسكت، اسكت... هناك الضلال. هناك حرب طاغية بين الشهوات والضمائر هناك تقاتل بين الأمن والخصام، ولكن بدون سلاح، بقوة خفية يعينها الشيطان بأسلحته اللامرئية

وصمت الرجل لا عن جمود وبرود بل عن خوف وتردد... سكت الرجل لأن العاطفة الجامحة ثارت فود لو يضمها إلى صدره إلى الأبد، وأخيراً غمغم بصوت خفيض...

ما أنبل قلبك!

لكن أيمكن أن يظل هذا القلب هكذا سامياً مجنحاً

وانسحب بعد أن صافحها في خشوع أقرب إلى العبادة، ملي القلب بالإحساس العميق، وقد تركها مغمورة بشعورها المجهول وقلقها الرهيب

... ...

مرت الأيام تباعاً وهي تتجنبه بقدر ما تتمناه وقد أدرك من المرات الذي لقيها فيها إنه أحبها حباً جامحاً مشبوباً وكلما هم بمصارحتها تحداه طهرها في صمت

أنها فتاة فقيرة كما يعتقد، وهو رجل غني وجيه، فكيف يجتمعان؟

لقد أحبها، فهل الحب قادر على محاربة التقاليد والأوضاع... هل يستطيع أن يتزوجها ويفاخر بهذا الزواج؟ أيستطيع أن يقنع والده العظيم بأنه لم يقترف إثما بهذا الزواج؟

وفكر الرجل طويلاً وأخيراً ظن إنه في مقدوره أن يجمع بينها وبين احترام التقاليد المرعية فليتزوجها خفية ليسعد قلبه وليرضي والده بما يرضيه، وحيال هذا الخاطر راح يفكر بعقل الفيلسوف ويحلل قضية الحرب العنيفة بين الفضيلة والرذيلة وظهور هذه بلباس تلك وتلك برداء هذه حتى لم يعد في الإمكان التفرقة بين هذه وتلك.

الصدق فضيلة

الكذب رذيلة

إنما متى نفهم حقيقة الصدق، ومتى نعرف خفايا الكذب متى؟... متى؟ هذه المشكلة التي لن تحل أبداً إلا بفناء العالم

إنه صادق في حبها ولكنه لا يستطيع أن يضمها إليه فلابد إذن من الكذب، لكي لا يفقدها إلى النهاية. إذا قال لها أحبك فمعنى ذلك إنه لابد أن يقنع بها وإذا قال ها انا موثوق بقيود التقاليد فمعنى ذلك إنه لا يحبها... أي معضلة؟ أي معضلة؟

وكلما حاول أن يتحدث إليها في صراحة يشعر بأن شبحاً مخيفاً يهدده وينذره فيصمت ويقنع بالحديث العابر التافه

ولقد استطاعت الراعية أن تفهم في صمت ما يعانيه الرجل من كبت وجهد وعناء فأشفقت وعطفت عليه. في تحفظ رزين.

أيحبها؟ لا تدري! في عينيه جذوة الحب المتقد، ولكنه جامد. بارد صامت، إذن فهو مشغوف بإحدى عرائس الحضر... لابد... لابد...

وأمام هذا الخاطر تلاشى ما كان في صدرها من أمل... بعيد براق كان يلوح لها في أفق الأحلام ملتمعاً ذا قيمة ومعنى، وقنعت بأن تراه سعيداً، موفقاً.

يا للشيطان! كيف يصور لها حلو الأحلام، ويحاول أن يغريها على التعلق بذلك الإنسان، وعادت تستعيذ وتستعين بإلهام الإيمان، حتى ذلك اليوم الذي مر عليها عابر السبيل فوجدها على غير ما عهد واجمة متجهمة مفكرة وكانت في هذه اللحظة في حاجة ماسة إلى الترفيه عن نفسها ففرحت بحضور المسكين وخرجت من جمودها مسبلة عليه ستر حنوها وعطفها ومنحته ما ادخرت له من زبد ولما لمحت غطاء رأسه ممزقاً أعطته غطاء من الصوف صنعته بيدها

وفهم المسكين من لهجتها الخافتة المتقطعة إنها مهمومة حزينة فسألها:

أراك اليوم يا مولاتي شبه حزينة أحدث ما جعل بهجة نفسك تغرب إلى حين...

ثم هز رأسه معقباً:

لم تخلق بعد بواعث الشرور التي تبعث في شروق قلبك ضبابا

فتمتمت:

وهل في الحياة ما يعنيني حتى آبه له؟ إنما يحزنني توجع هذا الصغير،

وأشارت إلى صغير من القطيع،

ولست على مداواته قادرة أنظر ألا تراه يتألم كما يتألم الإنسان إذا داهمته الحمى أو المرض. ولست أدري سبب شكايته وباعث مرضه مع إني حريصة جد الحرص على القطيع.

وسحبت المسكين من يده وسارت به إلى الصغير الشاكي. وراحت تمسح شعره قائلة:

قل لي ماذا أصنع.

فأخذه منها وفتح فمه فوجد به (شوكة) غرست في فكه... ولما رفعها بيده استراح الصغير وهدأ ونظر إليه كأنه يشكره. وانسحب المسكين راجياً لها ولقطيعها كل خير وتركها مستأنسة بذاك الرجاء!

ولم يكد طيف المسكين يتوارى وراء الأشجار الكثيفة حتى ظهر الرجل يدنو منها في عجلة ولما واجهها انتفضت مذعورة إذ لم تكن

مترقبة ذاك اللقاء على إنه لم يترك لها فرصة لتبدؤه بالكلام قائلاً:

هل اتخذت محرابك مأوى لعشاقك؟

ثم ضحك متهكماً وحملق فيها شذراً مردفاً:

الآن فهمت سر جنوحك للعزلة واتخاذك ذاك المأوى مهربا من نظم المجتمع التي تحرم الباطل،

وانقطع عن الكلام ليضحك طويلاً ثم أردف:

ما أغباني، كيف ظننتك ملكاً، وكيف توهمت أن المرأة يمكن أن تتحرر من غريزتها قانعة بإيمانها الروحي...

وسكت ليسترد أنفاسه ولعله ترك لها فرصة للكلام فلم تثر ولم تتحرك ولم تبد أي اعتراض بل ابتسمت في هدوء وظلت محتفظة برصانتها ولما أغاظه جمودها قال:

إلى هذا الحد أنت فاسدة؟

فرفعت رأسها في أنفة وكبرياء ونظرت إليه في اطمئنان قائلة بصوت خفيض رصين:

وماذا يضيرك؟

فاشتد غيظه وصرخ في وجهها:

ولماذا خدعتني!؟

فظلت محتفظة بهدوئها وثباتها ورمقته بنظرة ساخرة ثم قالت:

أنك لم تخسر أي شيء يا سيدي ولن تعاقب لإثمي، أنا وحدي التي آخذ حظي من الجزاء، وليكن على أي صورة.

فلوح بيده، وهز رأسه ثائراً وقد شعر إنه جرح في كرامته وأن هذه الفتاة لعبت بعقله وندم على محادثتها بعض لحظات والتفكير فيها بعض أيام وتجسمت الصورة التي كانت في الأمس صغيرة، حقاً لم تكن الخسارة هائلة لأنها لم تكن الفتاة التي يرتجيها... ولكنه كان يثق فيها. فما أمر الخيبة في الثقة، وقال بعد صمت ممض:

أظنك حسبتني ضريراً لا أبصر وتوغلت في الرذيلة ظناً منك إنه لا يوجد هنا من يكشف أمرك... ها ها ها ها. أليس كذلك أيتها الزاهدة؟

هنا لم تستطع على الإهانة صبراً فقالت بلهجة حادة:

يا هذا، إنك لا تفهمني ولا يمكن أن تفهمني أبداً، فأذهب في طريقك فإن الله الذي يعاقب المخطئ لا يترفق بسيء الظن

ثم ضحكت متهكمة مردفة:

أنا خدعة كما تقول وأنت حقيقة كما تظن فأذهب في طريق الدنيا التي تحترم الحقائق التي على شاكلتك. الحقائق التي نسجت لها الأوهام وشاحاً براقاً يجذب الأبصار وما هي إلا ومضات البرق الخاطف تنذر بالرعد والريح العاصف المدمر

لكل كائن لم تثبت قوائم إيمانه فيه، أذهب يا سيدي آمنا وحسبك،

وتنحت عنه، فغضب وثار جنونه وصرخ:

لن أدعك أكذوبة في قلب ذاك الخلاء تحت حماية الرياء المسبوك معدن الدماء في شبه زهد

ثم تحول ناحية الكوخ وهدم أركانه ونثر محتوياته

فلم تأبه ولم تثر ولم تمنعه وراحت تضحك في طلاقة ثم أشارت إلى القطيع بعصاها فالتف حواليها كأنه يحميها من سطوة الرجل الجائر، وسارت في طريقها في دعة ورزانة. فازداد حنقه لعدم اهتمامها ووثب غيظه ليهاجمها فلحق بها واستوقفها قائلاً:

من هذا الرجل؟

قالت في تؤدة بغير تلعثم:

افعل ما تجيزه نفسك الطائشة ولكن لا تتدخل في شؤوني

قال:

أنا لا تهمني شؤونك، إنما من واجبي أن أحارب الرذيلة في كل مكان

فضحكت ساخرة منه قائلة:

أنت تحارب الرذيلة، ومن أنت يا سيدي؟ يارب السموات، أنت القادر تترك الناس تعبث بشرائعك على مسمع منك، وأبناء الضلال يريدون محاربة الرذيلة

ثم تنفست الصعداء وأعقبت:

قل لي كيف تحارب الرذيلة وأنت نفسك تحيا بالرذيلة: يا إلهي تعاليت وتباركت، أنت وحدك العليم بخفايا السرائر؟

فقاطعها:

لا تهربي من الجواب وقولي من هذا الرجل؟

فرفعت وجهها إلى الله في توسل وخشوع قائله:

يا ربي امنحني ثقتي بنفسي وصبري حتى النهاية وامنح يا إلهي عبدك المخطئ قبساً من نورك ليدرك على ضوئه حقيقة النفوس

قال مستخفاً:

بمثل هذه الشعوذة تريدين أن تدافعي عن نفسك!

وهنا فقدت المرأة صبرها وملكتها كرامتها المهانة فقالت في حدة وتؤدة،:

أيها الرجل إنك لم تر ما يحلل سوء ظنك ولو لم تكن نفسك موبوءة لما اتهمتني، لماذا لم تتهم نفسك بالإثم عندما طرقت

بابي ومحاولاتك التغرير بي بنظراتك وتنهداتك وكلماتك في مهارة لتحملني على الاستسلام لك من غير أن تسلم بأنك الراغب

ثم نظرت إليه مشمئزة وتركته في مكانه وتابعت خطاها ولم تكد تتحرك حتى لمحت عابر السبيل يعدو نحوها يجر ساقيه في بطء وجهد وقد أحنى جذعه ووضع يده على قلبه كأنه يعاني ألماً مميتاً فتوقفت عن المسير لما واجهها قائلاً:

سيدتي، أشعر بألم شديد وأخشى أن يقف قلبي بغتة فإني مصاب به كما أخبرني الأطباء فيما مضى،

ثم ارتمى على الأرض في شبه إعياء وقد بلل العرق جبينه والتمعت عيناه

فتألمت الراعية له وعطفت عليه قائلة:

قليل من اللبن يعيد إليك عافيتك فلا شك أن ما أصابك من تأثير الجوع أو سوء الهضم،

وحلبت له بعض اللبن وقدمته له

وبعد أن شرب اللبن انتظم قلبه وعاوده نشاطه فشكرها ثم أطرق مفكراً، ورفع وجهه إليها بعد برهة قائلاً بصوت خفيض هادئ:

أصبحت أترقب الموت كل لحظة وأنا لا أخاف الموت هربا من ملاقاة الله... ولكنني أخشى أن تفقد الطفلة التي

أرعاها القلب الوحيد الذي يحنو عليها ويعيش من أجلها،

ثم عاوده الوجوم فأطرق... وأخيراً قال:

مولاتي... تعرفين إنني عابر طريق بائس، ولكنني في الواقع ابن امرأة، افتتن بها وزير عجوز فتزوجها قبل أن تبلغ العشرين من عمرها، إذ توفي والدي بعد أن وضعتني بشهور فاحتضنتني جدتي لكي تنعم أمي بأطايب الحياة في منزل زوجها الجديد، باعت الابن بالزوج وارتضت الأنانية ديناً... وراحت الأم توهم الناس إنني شقيقها الصغير وأفهمتهم أن الوزير تزوجها بكراً. لم أفكر في هذا الأمر وقتئذ لأن جدتي منحتني حنانها شاملاً وعطفها كاملاً وأولتني حب الأم وأكثر... حتى إنني نسيت أمي بها ولم أعد أشعر لها بأي حب وبفضل رعاية جدتي أتممت دراستي حتى النهاية وبدأت أواجه الحياة بعقل الرجل وقلب الإنسان، ورحت أهيئ لي مكاناً يكفل لي السعادة المرجوة وأصبح لي من أمي أخوات لم أنعم بالحياة معهم... زرت أمي يوماً في عيد لأقدم لها ولأولادها هدايا العيد وكنت قد بلغت شأواً محموداً... وأثناء وجودي دخل الزوج مع بعض الزوار فقدمتني أمي لهم قائلة... أخي

في هذه اللحظة فقط فهمت كل شيء. أمي تتبرأ مني من أجل المظهر من أجل الحياة من أجل العظمة المادية، رباه أي شعور تملكني، أي حقد ملأ جنبات نفسي، خرجت أسير في الطرقات كالمخبول، أردد... أمي... أخي... أمي...

أخي... فأيهما أصدق هل هي أمي أم أنا أخوها... رباه... رباه...

عدت إلى منزلي لأستوضح جدتي حقيقة الأمر إذ بدأ الشك يقتلني، فقد أكون شقيقها حقاً...

أريد أن أعرف إن كانت جدتي كذبت علي يوم أفهمتني أن هذه المرأة البعيدة أمي أو إنها صادقة وأمي الكاذبة؟

دخلت عليها كالمخبول أناديها فلم اسمع لندائي جواباً... خرجت الجدة لتطيل من عذاب الشك، تمشيت في المنزل شارداً واجماً... أفكر وأتساءل، وأبكي، لأول مرة في حياتي بكيت، بكيت بكاء الرجولة القوية المخذولة!

وفجأة اصطدمت على غير وعي بجسم ملقى على الأرض...

من .. آه جدتي نائمة، أيقظتها في جنون وقد اشتدت لهفتي لتعرف الحقيقة... فلم تنتبه... رباه، رباه... ماتت جدتي ذهب مفتاح السر، أي هول... أي مصاب... أي بكاء يعينني على تخفيف بلواي

أبلغت أمي أو أختي الخبر، فجاءت، ولم أدعها تفلت من يدي بعد دفن الجدة العزيزة قبل أن تصارحني باليقين، قلت لها:

أصدقيني، هل أنت أمي أو أختي

فابتسمت المرأة كالحية الرقطاء ما أغرب سؤالك يا توفيق

قلت في جد، أصدقيني قوليها كلمة واحدة، أمي أو أختي

قالت:

طبعاً أمك، أتشك في ميلادك، عندك شهادة الميلاد

قلت بصوت المفجوع وقد أصابني السهم في قلبي: كفى، كفى! إذن لماذا تحرميني متعة البنوة، ألم أكن كفئا للانتساب إليك؟

قالت:

لا يا توفيق - وصعب عليها أن تناديني بيا ولدي، فحز ذلك في نفسي وآذاني وأثار كامن شجوني وأساي - إنما زوجي لا يعرف وإذا عرف قد لا يغفر لي كذبي، وإذا عرف أولاده قد يخبرونه.

فوقفت في كبرياء ورمقتها بنظرة شذراء وقهقهت عالياً وقد انتابتني نوبة جنون وقلت: وأنا ارفض إخوتك يا هذه، لأن المرأة التي تتبرأ من ولدها لا يأتمنها أخوها

وتركتها وهرولت في الشارع أعدو كالمجنون، أغمغم: بالمال باعتني فيجب أن أبيعها، لا أذكر ماذا حدث لي! عشت بضع أيام بغير وعي، ورأيت الحياة تافهة لا قيمة لها

ثورة عنيفة اجتاحت كل أمن وسلام في نفسي! كرهت العالم كرهت الناس، واسودت الحياة أمام ناظري وأصبحت أنظر إلى كل شيء بنظرة مريبة، أشك في كل أم وفي كل أب وفي كل أخ

وصمت ملياً يغالب أنفاسه ويصارع الموت كأنه يطمع في الحياة وفتح عينيه وحملق فيها في هدوء وابتسم ثم غمغم بصوت متقطع غير مسموع:

ظللت كذلك شريداً محموم المخ حتى ذلك اليوم الذي لقيني فيه الشيخ المسكين الذي كنت تمنحينه بعض ما تملكين، وكنت أتمشى هنا هارباً من الناس ومن الضوضاء ومن المدينة، ومد إلي يده ليطالبني بدرهم فأبيت ناظراً إليه في تنكر متختا عنه، فتلقى المسكين إهانتي ببسمة فاترة ثم قال:

جرد نفسك من الرجولة لأن المرأة أفضل منك

فبلغت كلماته شفاف قلبي وثرت عليه صارخاً: يا للشيطان، المرأة، الضعيفة المسكينة، الكسيرة الجناح، أنا أتجرد من رجولتي لأنها أحسن مني. فقال مؤكداً: أجل وأقسم لك... ثم أشار إلى كوخك مردفاً: هناك المرأة تعلم منها كيف الإحسان

وصمت الجريح مرة أخرى ليعاني سكرة الموت ويغالب النزع الأخير ثم أعقب في شبه همهمة:

لا أذكر كم من الأيام مر علي... وأنا أحوم حول كوخك من بعيد، من بعيد، شاعراً بأن هناك قوة خفية تجذبني إليك كطيف يعيش على الأرض مجنحاً وتوشجت بيني وبين المسكين معرفة بددت ثورة نفسي وأحالتني إلى طفل كالحمل الوديع ومنه عرفت حكايتك

وسكت برهة ثم راح يتمتم في عناء:

أحببتك... أحببتك، ثم اقتديت بك وتركت الحياة بأكاذيبها لروادها وطلابها، ولجأت إلى الاستجداء منك لأنعم بحديثك البريء آنا وعطفك الطاهر أحياناً

وفتح عينيه في بطء ونظر إليها بعينين دامعتين وقد بدأت حركاته تتقبض وتنبسط ثم تمتم:

وداعاً يا ملاك الرحمة، وداعاً يا من غيرت عقيدتي في المرأة، وداعاً يا من خلقت ملكاً في كيان امرأة،

وشهق المسكين شهقة خرجت معها روحه

صرخت الراعية:

لا تمت، لا تمت. عش سأرعاك

... ...

بحثت الراعية عن الطفلة اليتيمة حتى عثرت عليها في كوخ متواضع في عناية امرأة عجوز، فأخذتها لتتعهدها وترعاها ونقلت كوخها وقطيعها إلى واد آخر لتكون بعيدة عن بواعث شجنها وذكرى الميت الشهيد

سهرت على رعاية الطفلة في حنان الأم الرءوم وقد علمت من المرأة العجوز إنها ابنة امرأة مسكينة كانت تقطن بجوار كوخ الميت الراحل ولما ماتت صعب على الرجل المسكين أن يترك الطفلة تحت تصرف القدر الجائر فتبناها وأخذها تحت حمايته ليرعاها

وراحت الراعية تخاطب نفسها في شبه همس:

هذا القلب الكبير والروح الجليل والمسكين الرحيم... فهل يسمع الغني؟

أيسمع الغني الذي يصم آذانه عن شكوى المتوجعين المنكوبين؟

أيسمع الغني الذي يصدم بسيارته الكسيح في الطريق فيمر به عابراً ويتركه على حافة الموت

أيسمع الغني الذي يغلق أبوابه عندما يسمع بموت أحد في منزل جيرانه؟

الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر على الرحمة المفقودة والشفقة المقبورة والواجب المجهول

مرت هذه السوانح بذهن الراعية التي تعرف ما يدور في عالم الأثرياء وما يجري في عالم الفقراء... فأحبت الطفلة حباً يقرب من العبادة وتناست بها كل مآسي الحياة غير آبهة بما يجول في نفس كل لئيم وما يوسوس به صدر كل شيطان آدمي رجيم

أولم يمر بها إنسان ويلاحظ حنوها على الطفلة فينظر إليها في ريبة ويقترب منها في ارتياب ويقول متهكماً...

كان الأفضل أن تضعي الطفلة في ملجأ اليتامى لكي لا تكون سبباً في حرمانك من متع الحياة،

ويبتسم في خبث... فتفهم ما يعنيه وتعرض عنه دون كلام، وكان في مقدورها أن تبصق في وجهه أو تصفعه على خده ولكنها ترتفع بإنسانيتها إلى التسامح والأناة والصبر والاحتمال لكي لا تعبأ بأراجيف أبناء الأرض

ويمر بها آخر فيحوم حولها كالذئب ويقول:

ما أجمل الطفلة إنها تشبهك، كيف غدرك والدها اللعين، فياله من شقي أبله... أقذفي بها في وجهه وانتقمي لنفسك منه بالبحث عن سعادتك في مكان آخر فيه تنعمين!

رغم ذلك تضحك وتعانق الطفلة تدغدغها وتناغيها وتداعبها وتلمس طهر السماوات العلا في بسمتها وتلمح نور الحب العلوي في عينيها فالفه بذاك المغنم من دنياها

وهكذا حبست نفسها على رعاية الطفلة وأعانها الإيمان والصبر على السلوى والاحتمال حتى جاءها الرجل الذي تناسته يتقدم إليها في تهيب وتأدب، ووقف أمامها كما يقف العابد أمام المحراب يصلي بغير كلام

تجاهلته الراعية قائلة:

ماذا تريد يا هذا؟

قال بصوت خفيض كسير:

أنا ابن وهم الأمس الغابر جئت أحيي ابنة الطهر الأكيد

قالت:

أوه... أذكر إنني رأيتك؟ لا أدري متى؟ ولا أين؟ أتريد خدمة يا سيد؟

فأحس بشعور يجوب قلبه في شبه نور اكتسح كل خوف وتردد ومر صوتها على مسمعيه كنغمة علوية كأنها هابطة من أفواه الملائكة المقربين وركع تحت قدميها قائلاً في خشوع:

يا أختاه امنحيني عفوك... فو الله ما أسأت الظن بك إلا غيرة عليك ومن فرط حبي فيك

قالت في جفاء دون أن تنظر إليه:

أبق عليك كرامتك فو الله ما خلقت إلا للتسامح والصبر المبين

فبانت التوبة تلتمع في عيني الرجل كأنه أمام ربه يستغفره ويسترضيه وقال:

حسبي ما عانيت، لقد عذبني ضميري وأحرقني بلهب التأنيب وهأنذا جئتك بعد أن اغتسلت بدموعي فتطهرت من كل وهم أثيم... أتعرفين إنني أذهب كل أسبوع إلى قبر الميت الشهيد أضع على قبره المجهول زهور احترامي وخشوعي اعترافاً مني بجميله...

لقد انتشلني من بؤرة الظن المهلكة عندما حدثك عن مأساته وأنا خلفك أستمع بقلب لو انبعثت حرارته منه لحرقتني

احترمت موته واحترمت حزنك، فخلوت بنفسي استغفر الله وظللت بعيداً وحيداً سجين غرفتي طيلة هذه الأيام التي مرت. حتي أحسست أن الله غفر لي بفجئتك

فابتسمت في لطف وقالت:

واذا كان الله يغفر للمخطئين ألا أغفر أنا... غفر الله لك... لقد غفرت... وكيف لا أغفر ولي قلب امرأة؟

... ...

توطدت الصداقة البريئة بين الرجل والراعية والطفلة موضع حنانها وعطفهما وفي أمسية مقمرة كان يجالسها وقد غمرهما سكون الحب الدفين

وبعد أن غالب الرجل وجدانه قال:

أيطول بنا العمر حتى نؤدي رسالة الكل إلى الكل؟

فأحست بأن روحه اجتازت صدرها في لطف حتى استقرت على عرش قلبها العالي وشعرت برعشة الحياة تدب في كيانها وتوقظ ميت وجدانها. فقالت والدموع تسبقها...

إن استطعت أن تفهمني غلبت بي القدر

فقال:

امنحيني الحب وحسبي

قالت:

أيطلب الحب ويمنح؟ كأنك تتصوره بيعاً وشراء.

وضحكت في بساطة...

ثم أردفت:

تجارة عاطفية اشترعوها في القرن العشرين! اسمع يا صاحبي، أنا لا أعرف هذا الحب ولا أفهم لغته مطلقاً. ولست

أحاول تعرفه أو المخاطبة بأسلوبه فإذا عوفيت من أوهام العقل وأضاليل الإحساس فهمت الحب

قال:

أنا لا أجيد الحديث عن الحب وإنما أحسن الإحساس به

قالت:

إذن أنت تفهمه فهل في مقدورك أن تعيش به وله

فبدت على وجهه دلائل الحيرة والتردد وحاول أن يخفي ارتباكه

قائلاً:

بالتأكيد... بالتأكيد...

قالت:

لقد نسيت أن أسألك كيف تعيش

قال:

والدي (عمدة) هذه البلدة وليس له من البنين سواي تعلمت حتى نلت إجازة الزراعة ولكني فضلت أن استغل تعليمي لخدمة بلدي وإصلاح أرض أبي، وفعلاً بدأت والحمد الله النجاح حليفي.

فانطلق وجهها وصفقت بكلتا يديها في قوة قائلة:

حسناً.. حسناً

ثم صافحته مردفة:

الآن فقط اعترف أن الرجل الذي يعتمد على نفسه هو خير الرجال العاملين لوطنه.

وعادت تصافحه معقبة:

من كل قلبي أهنئك وأرجو لك التوفيق المطرد والنجاح الدائم.

قال:

إذن أنت راضية عني

قالت:

كل الرضا

قال:

آه لو احتفظت المرأة بطبيعتها أبداً، يشيع من عينيها بريق الأمل الخلاب وتوحي شفتيها بظلال السحر الجذاب وتلهم موسيقى صوتها أجمل الأغاني العذاب

ثم قبض على يدها في حنان مردفاً:

إني أخاف

قالت:

مم؟

قال:

أن يكون في ذاك الشراب قتلي... في عينيك عمق الأبد، وعلى كلامك طابع الخلود

ثم أحس أن قوة خفية ألهبت عواطفه وأشعلت غريزته فارتعد واضطرب وبكى...

ثم أخفى وجهه براحتيه وراح يجهش باكياً كالطفل الصغير

فترفقت به وعطفت عليه وقالت:

ما الذي يبكيك؟

فخجل من نفسه ونظر بعيداً ليخفي عواطفه الثائرة وبدا على وجهه أثر الانفعال الممض فريعت الراعية وتلطفت به حانية رافعه رأسه بيديها في رقة قائلة بصوت منعم حلو:

افتح عينيك ودعني أتأمل فيهما طويلاً!

لأطالع نشيد الصمت الرائع!

لأتبين حقيقة السر الهائل!

لأقرأ قصة الأبد في كلمة واحدة

لأرى ظلال الحلم الذاهب واليقظة الغافية!

افتح عينيك فقد بدأ كل شيء يتلاشى إلا معنى الحقيقة المجسمة في قلبي

فغمغم وهو ما زال يخفي وجهه:

ومن أنا حتى افتح عيني في عينيك... لا تعذبيني بدأت احترق، ارحميني... ارحميني يارب السماء لو رفعتنا إلى عرشك في هذه الساعة لكللناه بأهازيج أرق نسمات الفجر ولسبحنا بحمدك بكرة وأصيلاً!

واكتنفهما سكون الخوف. فتمنيا لو يقف عقرب الساعة ويظل كل مظهر في الوجود ثابتاً ثم طال صمتها. وقد ساعد ذلك الرجل ليقرأ في عينيها المغروقتين بالدموع قصيدة الاستسلام

فاطمأن وهدأ.

ولما مرت بعض لحظات. نام عقل المرأة لأن القلب بدأ يتنبه

وبدأت الغريزة تهمس في كل جارحة في الرجل، تقدم. تقدم. اشرب شراب الخلود قبل أن يتنبه العقل النائم.

وتحرك الرجل

فلم تتحرك المرأة.

واقترب منها فلم تبتعد، ونظر إليها في حرارة فنظرت إليه في خوف واضطراب

قال امنحيني الحب صرفاً، أمنحك حياتي وما أملك صدقاً

وعادت الغريزة الطاغية تصرخ والشيطان يحلل له الباطل ويخدر اعصابه بمخدر الثورة الجامحة

لم يكن في المكان سواهما.

إنه يحبها ويشعر بذلك غير كاذب ولا مرائي

وهي تحبه بدليل إنها تسامره وتناجيه وتتمنى لو تمنحه من عواطفها أعز ما يرتجيه...

ومخبأه في غفوة الضمير الحي، قبلها، وبدل أن يحس بالحرارة التي كان يتخيلها أحس ببرودة العدم تسري في شرايينه

رفع يديه في وجوم، فسقط الجسم على الأرض صريعاً

وصعق الرجل لما لمح شحوب الوجه بعد تورد كان يضاهي الزهر النضير بهاءاً والجسم الغض الناعم في تصلب جسوم الأموات

وارتمي على الجسم يحركه فلم يتحرك. وتلمس التنفس. فأدرك بعد عناء إنه بطيء خافت كأنه في النزع الأخير.

واعتقد أن في حياتها أمل!

نضحها بالماء فاستفاقت بعد عناء وفتحت عينيها في بطء وإعياء مغمغمه:

أما زلت هنا أيها القدر الجائر.

ثم تكلفت بسمة أمر من المر وأردفت:

يا الله. كيف انتهيت عندما بدأت وما لي مت عندما حييت

فركع عند قدميها باكياً وفي صوت مرتعش أشبه بهمهمة النائم قال:

لا تسليني لم جننت؟ سلي نفسك، لم صاغك الله من سحر ومغطسة، ولم خرجت من باطن الغيب لتأخذي مكانك في قلبي وأي قوة قيدت روحك بروحي؟ لا تسليني كيف فتنت بك؟ سلي نفسك: ألست إنساناً استودع الله جسمي الرغبة كما استودع قلبي الحب وروحي الإيمان؟

فاعتدلت في جلستها وقالت:

يا صاحبي: أتحب روحي أو جسمي

فتردد ملياً وفكر ثم قال:

أحب روحك، ولكن لماذا لا أحبهما سوياً ما دام في مقدوري

قالت:

اسمع، لا مفر من الاعتراف بأني احبك، لكن لا يمكنني أن أشوه جلال الحب الروحي بلذة الجسم الوقتية. فإن أحببتني أخت روح فلك مني أكثر مما ترجو من الإخلاص والوفاء وإن طمعت في بدني، لك دينك ولي دين، فكر، فكر جيداً وسأترك لك فرصة يوم أو يومان، بل أيام، فإن قنعت بحبي الروحي تعال ألقاك بقلبي صافي الإيمان وإن رجوتني فتاة متعة فأذهب في طريق الحياة يرعاك الإله من تغرير الشيطان

وتركته حيث هو. وهرولت وحيدة لتختفي في كوخها ولعله كان في شبه غفوة لأنه لم يلحظ فرارها إلا بعد أن خلا المكان منها

... ...

الرجل محب كما يعتقد والمرأة جديرة بكل قلب وفي سبيلها التضحية تهون! لكنها لا تريد أن تعود إلى دنيا الناس تطمع في أن تظل في الصحراء وحيدة أو مع الرجل الذي يفضل الحياة بجانبها تاركاً وراء ظهره مغريات الوجود

لو عادت معه إلى المدينة لاستطاع أن يعيش معها عيشة ممتعة زاخرة بالمسرات

لقد حاول مرة أن يعود بها إلى المدينة فأبت وقالت:

أمام الرجل الذي يحبني الحياة الدنيا بأكاذيبها وأنا بحقيقتي، فليختر أحدنا فإذا فضل الدنيا بظواهرها فليذهب مع

الشيطان فلست له، وإن فضلني فليعش معي في هذه الأرض نتذوق ملذات الروح ونرتشف من رحيق حبنا السامي صنوف الخلد والنعيم

لا يجمع الإنسان بين لذة المادة ومتعة الروح

من الأولى يرشف رحيق اللهب فيحترق بعد حين

ومن الثانية يتغذى من معين الجنة وهو مغمور بسحر النعيم

وقال لها مرة أخرى:

لماذا لا نجمع بين المادة والحب؟

فقالت:

لو كانت المادة تحفظ لي كيان الحب لما ترددت في السعي إليها ولكنها تقضي عليه... ما عرفت إنساناً أحب امرأة غنية مثلاً وعاش معها بقلبه إلى الأبد، وما عرفت امرأة أحبت رجلاً غنياً وعاشت معه بروحها إلى النهاية ويقيني أن الحب يعوض الإنسان ما يفقده من لذة المادة

وانسرح الرجل في عالمها وراح يتخيلها طويلاً ثم احتوته شبه غيبوبة أسلمته ليأس مرير

إنها عنيدة ولا يمكن أن تخضع له

وانتوى أن يغيب عنها محاولاً أن ينساها مادام عاجزاً عن تحقيق رغبته، فلا هو قادر على مغادرة الحياة والاكتفاء بها ولا هو يستطيع أن يخضعها لمشيئته ويحملها على العودة إلى دنيا الناس

بينما كانت الراعية تفكر أيضاً!

أتراه صادق في حبه، لو كان لهرع إليها وعاش في كنفها تحت دوحة حبها الظليل ولكنه ككل رجل لابد له أن يتمتع بكل شيء

وابتسمت مغمغمة...

تجربة هائلة تريحني من عناء اختيار رجل حبيب... من يحبني لا يفزع من الوحشة هنا ولا يجد الجوع بجانبي

وحزت على شفتيها في حرارة وبكت في مرارة رافعة وجهها إلى السماء قائلة:

أيصعب عليك يارب أن تخلق لي رجلا... رجلاً واحداً يماثلني في الشعور والتفكير وكيف خلقتني وحدي يارب ولقد خلقت من كل شيء زوجين!

أنا لا أشتهي الرجل يارب ولكنني أحار في تفهم السر الذي استودع قلبي خلاصة الحب ولم يخلق لذاك القلب من يتمتع بهذا الحب ويبادله حباً بحب؟

ألك حكمة لا أعرفها يا رب؟

ليتني أعرفها لأستريح وأنام إلى الأبد... ليتني...

ثم خافت أن يكون هذا التحدي كفراً فقامت تصلي مستغفرة

قائلة:

أنت الذي أودعت بجانب قناعتي رغبتي وسجنت روحي في كهف مادتي

أنا لا أتململ يا إلهي وقد زهدت في أباطيل الدنيا، ولكنني يصعب أن أثبت وجودي

أحب أن أشعر بأنك خلقتني لغاية أسمى من غاية هذا الحيوان

... ...

ومرت الأيام بطيئة متوانية وقد أصبح الرجل كومضة برق اختفت وعكفت على الطفلة ترعاها. إلا أن الطفلة بدأت تشعر بغياب الرجل. وكانت أفهمتها الراعية نزولاً على رغبته إنه والدها حتى أن الطفلة تعلقت به وراحت تنتظر أوبته ليحضر إليها بعض الحلوى واللعب كما عودها

قامت الطفلة في الصباح الباكر تنادي:

أبي. أبي

وأيقظت الراعية:

أماه. أين أبي، لقد غاب. متى يحضر متى يحضر؟

أي حنين دافق ينساب من قلب الطفلة الحلوة البريئة فينسكب في حرارة إلى قلب الراعية فيروي عطاشه وينبهه إلى ما مضى

أماه. غاب أبي. متى يحضر. أين هو لأذهب إليه

فتضمها الراعية بعطف محاولة أن تخمد حرارة وجدانها

أي اسم حبيب خلعته الطفلة عليه··· فهل يسمع؟

أيبلغ حنين الطفلة إلى قلبه فينبه ميت مشاعره؟

لو إنها كانت تعرف أن الطفلة تتلهف بقلبها وتحتفظ بكل شيء في قلبها وترجو بقلبها. لما ربطت بينها وبين ذلك الرجل.

وزادها ألماً تعلق الطفلة بذكراه وترديدها اسمه وحنينها إلى لقائه. وهي عاجزة عن تحقيق أمنيتها

لذا أخذتها تسير بها في الخلاء عل الطفلة تنسى هذا الحنين الملح وامتد بها المسير حتى أشرفت على بلوغ القرية القريبة من الخلاء. وهنا ترامى إليها صوت موسيقى تصدح صاحت الطفلة على أثرها:

أماه. أتسمعين. صوت المزمار. لا شك أن أبي هناك يسمعه. هيا نذهب إليه لنراه.

وهزتها في عنف كأنها تنبهها إلى ما تقول وتدفعها إلى سرعة المسير. وسايرت الراعية الطفلة ترضية لها ولكي تهون عليها شدة رغبتها

والطفلة لا تنفك عن الترديد:

أبي. أبي. هناك سنراه. إنه يسمع المزمار.

والراعية صامتة تنظر إليها في التياع حتى بلغت القرية فرأت أعلام الأفراح مهفهفة كالأرواح الخفاقة وقد أكسب السرور كل شيء صورة باهرة عليها طابع الفرح والبهجة وسارت بها قدماها دون وعي تحت تأثير الطفلة التي تقودها مشيرة بيدها الصغيرة. من هنا. من هنا. كأنها الدليل

ثم توقفت عن المسير فجأة لازدحامه بجماهير الراقصين والمطربين والمصفقين من الفلاحين

وظاهرة الفرح في القرى أنقى ما عرف من مسرات خالية من الشوائب والكلفة. من قلوبهم يفرحون ويكونون من الجماعات أسرة واحدة. كأن فرح الفرد - فرح كل جماعة من البلدة

ووقفت نجلة تتأمل الفرحة الكبرى البادية على كل وجه صغير وكبير على السواء

والخفراء يشتتون الازدحام ويوسعون الطريق لسيارة ازدانت بالورود والرياحين.

فهمت من المشهد إنه موكب عرس. وتراءت لها السيارة كسفين تعبر بالعروسين من بحر يموج بالناس إلى طريق مجهول، وكأن القدر يحوم فوقها مسبلاً غلالة محلاة بالأماني والأحلام ليبعد عنها أشباح الوساوس والأوهام

وأخذت مكانها بين الجموع وقد ملكها شعور مريح فانتعشت وتمتمت ليتها نشوة أكيدة تخرج من فم المزمار لتبلغ قلوب الناس أجمعين. لتوحي إليهم بشعور النعيم

وصرخت الطفلة:

أبي. أبي... إنه في السيارة...

واشرأبت الأعناق ليروا الطفلة التي تنادي. أبي. أبي. وقد بدت على وجوههم دلائل الحيرة والتساؤل ما معنى هذا النداء!

الشهيدان

كانت مريضة بغير مرض ومعتقدة أن في جسمها جميع ميكروبات الأمراض وهذه الميكروبات الكامنة تتنبه تحت أي تأثير خارجي

فاذا سعل مريض بذات الرئة أمامها سعلت وظنت إنها مصابة بذات الداء

وإذا تألم إنسان من دوار في رأسه أو شكا ألماً في أذنه توجعت وشكت كأنها مصابة بهذا وذاك

واذا قلت لها أنت بخير ولست مريضة وكل ما بك وهم يمكن تلافيه بتركيز شعورك بأنك موفورة الصحة والعافية - وأكدت وأقسمت - بكت وصرخت وصورت لك الألم والعلة في استسلام فظيع يحملك على الصمت - لا اقتناعاً بما زعمت ولكن حزناً علي ما أصابها من وهم مريع

تئن وتتوجع دائماً.

آه. عيني "وارمه" وتحدق في العين فتراها صحيحة يا ستي عينك سليمه.

عيني (وارمه). عيني (وارمه). تكرر ذلك في حدة

فإذا كنت ذكياً. تكلفت التصديق قائلاً

صحيح عينك (وارمه). استريحي قليلاً. أريني عينك. (خف الورم قليلاً انظري؟). فتنظر في المرآة قائلة. صحيح وبعد برهة. تتكلف البشر. خلاص انمحى الورم لا أثر له. انظري...

فتعاود النظر فرحة: أشعر بذلك وهي بطبيعتها لم يحدث لها أي تأثير إنما الوهم صور لها المرض وزواله

ويحدث ذلك ويتكرر في اليوم عدة مرات. مرة تشعر بالصمم وأخرى بعدم قدرتها على ابتلاع الطعام وأحياناً بانتفاخ رقبتها وقد تلزم فراشها لأن ساقيها لا يقويان على الحركة.

لا تختلط بالناس إلا إذا دعتها الضرورة الملحة حريصة على ألا تأكل أي طعام أو تشرب أي شراب من إناء غير الأواني التي خصصتها لنفسها معتمدة على نفسها في نظافتها والعناية بها

تخاف الظلمة ويفزعها السكون ولا تنام إلا في الضوء وبالقرب من نافذة مفتوحة حتى في الشتاء، بعد مدة طويلة تأنس إلى من يعاشرها فإذا انسجمت ظهرت بطبيعة المرح الأصيلة تضحك وتمزح وتلعب كأنها طفلة طروب فإذا عاودها وهمها بدت كامرأة عجوز يحزنها وهمها

تحترم الشريعة الإسلامية وتقدس الأوضاع الدينية لأنها نشأت في بيئة تنتسب إلى أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله وجهه

ومن غير تكلف تحرص على ستر جسمها ولا تبدي غير أطرافها - وإذا خرجت سترت وجهها بنقاب كثيف محاولة ألا تنظر إلى أي

إنسان في الطريق متجنبة التحدث لكي لا يسمع صوتها أثناء مسيرها اعتقاداً منها أن ذلك جرماً لا نهاية لفظاعته

وهي في منزلها لا تملك من أمرها أي حق مشروع فلا تأكل إلا إذا أمرت بتناول الطعام ولا تنام إلا بعد الاستئذان من أبيها أو أمها

حلوة طويلة القامة في غير نحافة شديدة ذات وجه متناسق بديع بيضاء اللون ذات شعر ذهبي لامع طويل تلمح على وجهها صفرة لا ندري إن كانت من انعكاس لون الشعر الأصفر أم من تأثير الوهم الدفين

لا تضحك إلا نادراً وإذا ضحكت قهقهت بصوت منغم فيه تموجات الخلاعة التي لا تصدر إلا من البنات الخليعات. وهي لا تتعمد ذلك. إنما حنجرتها مصابة بهذه الرنة الظاهرة

تقيم الصلاة في أوقاتها وتؤدي الصوم بأحكام صارمة. فهي في رمضان تحرم على نفسها أشهى ألوان الطعام. ولا تتناول غير وجبة الإفطار قانعة بلون واحد تأكل البطاطس ولا تزيد عليه نوعاً آخر وتظل تتناوله كل يوم حتى تشعر بتلبك المعدة فتتركه مستعيضة عنه بالاسفاناخ وهكذا لا تترك النوع إلا بعد أن تعافه أو تمرض منه وهي لا تتأثر بنصحك أبداً. أبداً

تعجز مهما كنت ذكياً محتالاً عن تفهم نفسيتها أو تعرف حقيقة ميولها ونزعاتها

مؤمنة صالحة محتشمة نجولة ولكنها تجيد الرقص والضحك واللعب وتتحدث في أي موضوع هزلي أو جدي في بساطة محببة وهي من هذا الطراز النسوي المحبوب الذي لا تمل مسايرته ولا تكره معاشرته

على هذه الحال قضت من عمرها عشرين ربيعاً لها في كل يوم علة جديدة تظهر وما هي بعليلة ولكنها نتوهم، واشتد بها الوهم فأسلمها إلى الضعف والهزال حتى خاف والدها أن تكون مصابة بمرض خبيث فعرض الأمر على صحابه المقربين ليسألهم عن طبيب مهذب أمين... وقال أقربهم إليه أخيراً: أعرف طبيباً ماهراً اعتزل الطب منذ سنين وهو يعيش بمعزل عن الحياة قانعاً بما يغنمه من زراعته وهو رجل طيب شريف ثم إنه يعالج أصدقاءه المقربين بإخلاص دون أجر وعلى ذلك تم الاتفاق على أن يصحبه مع ابنته ليقدمها إلى صديقه الطبيب

... ...

الرجل والمرأة خاضعان لنواميس الطبيعة فكل نظرة تقع على المرأة طبيعية من الرجل ولها الباعث ثم الأثر في الاثنين

وتختلف هذه النظرة باختلاف شعور الرجل فقد تكون موجهة إلى الناحية الجسدية المادية وقد توجه إلى روحها المعنوية

ولعل النظرة المادية هي المحور الذي يدور عليه تعارف الجنسين أما الذي يتجاوز هذا الطور - طور المادة - فإنه لا يقنع بالكفاف بل يتخطى الحاجز البشري إلى الفؤاد متغلغلاً في تلافيفه طامعاً في الروح،

يطمع في احتلال الذهن والذاكرة والخاطر والفؤاد يحاول محو ما فيها من الصور والمؤثرات ليبقي عليها ظله وحده

والصلة المادية التي تربط بين المرأة والرجل، رابطة غير ثابتة إذ تزعزها الغيرة ويلاشيها عدم الثقة ويضعف من لحمتها وملذاتها طول الزمن أما الصلة الروحية فهي رابطة متينة ثابتة تربط الروحين. وقوة جليلة تصل بين القلبين لا تزعجها الماديات ولا الانفعالات وتكون أطهر وأسمى جميع العلاقات، لا تكتسحها الطوارئ ولا تزلزلها بواعث الانزعاج، إذ هي الكفاية بين انبعاث النفس للنفس. إذ أن تنبه العاطفة للعاطفة فيه تركيز للارتياح والثقة فيحل الحنان الهادئ مكان الشوق العاصف والإشفاق الوديع مكان التفزز الوثاب وهذه العاطفة تضمن البقاء وتبعث على الاطمئنان في هدوء لأنها من أطهر أنواع الحب وأنقاه – صلة بين الروحين أو لحمة بين العاطفتين تقوى على الطوارئ والمصائب

فإذا ارتفع الإنسان بغرائزه إلى الروحانية فلن يحول بينه وبين السمو بإنسانيته حاجز مادي

وإذا أنكر العالم هذه الحقيقة فلأنه عاجز عن السمو بروحانيته كثيف بحيوانيته

وحسب الإنسان من هذا الشعور الجميل أن يؤنسه في وحشته ويملأ ذهنه بأجمل الأحلام قانعاً في خلوته بتنبه العاطفة للذكرى ويبعثه على الارتياح وثوقه من سيال العطف الروحي يغمره وتيار الحنان ينساب

في فؤاده من قرب أو بعد - فكلمة للعزاء تصدر عن حنان أقوى تأثيراً في مصدر العاطفة من مطارحة عن اشتياق

نحن نكد للارتقاء بالثقافة والأدب ونجد إلى الكمال فما الذي يبدد الوجهة في أشواط العاطفة؟

لماذا لا نرقى في هذه الناحية أيضاً؟

فنطلب الارتقاء عن مصاف العامة بتطهير السبيل والوسيلة والغاية لنرقي بالحب عن الحيوانية؟

الكهرباء تنتج في سكون فلا ترى؟

فلماذا لا تكون العلاقة الروحية بين الجنسين من هذا النوع الساكن غير المنظور؟

نظرة هادئة. هي رسول لاسلكي بين الفؤادين وابتسامة غير منظورة رسالة واضحة بين عاطفتين وغمضة لا تدركها الأبصار تكشف للمبصر عن البواطن وخفايا الجوانح

وجميع هذه الدلالات الخفية الواضحة نجدها في الصلة الخالدة بين الروحين بدون قوة التأثير في عالم المادة والضجة الكاشفة

بهذه الخواطر شغلت الفتاة ذهنها عندما قرأت ذلك في إحدى الصحف لآنسة أديبة

ولأول مرة في حياتها تقرأ مثل هذا الكلام. ولقد استطاعت أن تطالعه خلسة في غرفة الانتظار عندما ذهبت مع والدها إلى منزل الطبيب. وقد تركها الوالد ليخلو أولاً بالطبيب - لأن والدها يحرم عليها مطالعة المجلات والصحف والكتب التي لا تبحث في الدين، وذلك لكي لا تتعلم أباطيل المجتمع مما ينشر ولكنه لم يستطع أن يحرم على الغريزة محاولة تعرف المجهول وتفهم المحرم!

لقد تعلمت في إحدى المدارس الأولية ثم حبسها والدها في الدار مكتفياً بما ألمت به من مبادئ القراءة والكتابة لتستعين بما عرفت على تعلم أصول الدين وقد أفادها الاطلاع في كتب الدين إلى حد ما

لكن الغريزة لا تقاوم. أبداً. أبداً.

والطبيعة لها طريقها المرسوم منذ الأزل تسير فيه الإنسان رغماً عنه. ولأن الفتاة لم تتعود مطالعة الدراسات العاطفية وكل ما تعرفه عن الحب إنه جريمة محرمة. بدأت تحس بأن هناك نوعاً آخر من الحب. ولكن عقلها الذي ألف المجاعة الروحية لم يتأثر بهذا الإحساس الغامض وهيمن على مشاعرها وأوحى إليها بأن الحب على أي صورة إثم مبين لذا قام صراع بين القلب الذي بدأ يتنبه وبين العقل الراكد. القلب تسلح بالغريزة والغريزة توضح بغير لغة رسوم الحب في جمال مغر والإحساس يجسم كل صورة ويحفر لها في ذهنها بؤرة عميقة. حتى تنازعت تعاليم الدين المكتسبة مع أحاسيس الغريزة.

وراح العقل يدافع بمنطق لبق ليصون الفتاة من الغواية. قائلاً بأسلوب الدين - الجنة لمن اتخذ كبت الغرائز ديناً.

وارتاحت الفتاة لهذا الخاطر وتركت إيمانها يهمس في صدرها الجنة لمن حكم غرائزه. وقبض على زمامها فلا يسف. الجنة لمن يواجه اللهب ولا يحترق ليست الفضيلة في أن تحتجب عن مغريات الرذيلة لتتحصن بالإيمان في الظلام، بل الفضيلة أن نقاتل الرذيلة بسلاح الإرادة والإيمان

وعاد القلب يخفق راجياً. غذاء الروح. والروح مقيدة لا تستطيع حراكاً لأنها تعيش في جو خانق!

واشتد العراك بين العقل والقلب في صدر الفتاة ولكنها لم تفقه كنه هذا التناحر لأنها لم تألف اشتجار مثل هذه الخواطر غير إنها استسلمت رغماً عنها إلى شعور مبهم فيه حنين إلى شيء مجهول!

عله حنين الشباب إلى الشباب. أو حنين القلب إلى القلب

إنها تشعر بأنها في حاجة إلى شيء يطمئن قلبها ويهدئ روحها ولكن لا تدري ما هو هذا الشيء؟

وعاد الوالد ومعه الطبيب. فتكلفت الفتاة الهدوء والاستكانة ولما سألها الطبيب في لطف عما يعتريها من نوبات وما تشعر به من آلام. أخرس التهيب لسانها لأن هذه أول مرة تلتقي برجل غريب وتخاطب رجلاً غريباً وفي اضطراب وتلعثم بعد أن استجمعت كل شجاعتها قالت بصوت خفيض: كل جسمي - ففهم الطبيب من نظراتها الزائغة وحركاتها القلقة وشحوب وجهها أن بها علة دفينة فطلب إليها أن تكشف عن صدرها إلى حد ما لكي يختبر قلبها وظهرها فريعت

وتراجعت ونظرت إليه دهشة متمنعة كيف ترى صدري وظهري. لا لا. هذا لا يمكن أبداً. أبداً

فأمرها الوالد أن تخضع لمشيئة الطبيب إذ لابد من ذلك.

وهزت الفتاة كتفيها ممانعة. فعاد الوالد يأمر في عنف حتى استسلمت وهي باكية

فأشفق الطبيب على الجمال الذابل حليف الوهم القاتل وعطف عليها ثم أفهم الوالد على مسمع منها أن ابنته مصابة بالوهم وهي في حاجة ماسة إلى الرياضة واستنشاق الهواء النقي وتناول الطعام المغذي ومشاهدة كل ما يجلب السرور والبهجة لها.

وانصرف الوالد وهو يفكر في أوامر الطبيب. كان أيسر عنده أن يدفع عشرة جنيهات أو يزيد ثمناً للدواء بدل أن تخرج للرياضة واستنشاق الهواء في الحدائق والطرقات التي أصبحت بتأثير الحرية المطلقة أهبه بمجمع يعلم الناس الأضاليل ويبيح لهم كل محذور. واستعاد الشيخ صور المآسي والمصائب فارتعد وانتفض. وفضل لحبه بابنته أن ينفذ تعاليم الطبيب في حرص وحذر. ولكن ذلك سيتطلب منه تضحية وقته الذي أوقفه على تعليم تلاميذه في مسجد الحسين رضي الله عنه

ولما أختلي بالأم وقص عليها الخبر أشفقت على أبنتها وخافت أن تموت تحت نير التقاليد وقد كانت الأم قبل أن تتزوج تتمتع بحياتها وحريتها إلى حد ما وفي مقدورها أن تقارن بين حياة وحياة حياة الحرية المعقولة وحياة السجن الخانق ولذا استطاعت أن تقنع زوجها بضرورة رياضة البنت... وليكن ذلك مع الخادم أو الأخ بدل أن

يعطل نفسه ويضيع وقته - وبعد جهد أثرت على الابنة التي مانعت في الخروج أولاً واستسلمت لنصائح الأم.

... ...

خرجت الفتاة من الظلام إلى النور دون أن تتهيأ لمواجهة النور خرجت خلية الذهن من كل شيء يعلمها الحرص والحذر هي تعلم حقاً بما ترامى إلى أذنيها من صديقاتها القريبات أن الشبان تغرر بالبنات.

ولكنها ساذجة... جاهلة... بريئة... لم تلحظ عن كثب كيف تقتحم الرجال قلوب المحصنات.

كل شيء في الحياة بدا أمام ناظريها جديداً مغرياً جميلاً وبدأت تفهم الحياة بمقدار ما تبعثه من المسرة في نفسها وراحت تعب من معين الأماني راجية أن تكون مثل هذه الغادة الهيفاء التي تسير كالغزال في الطريق أو مثل هذه الكاعب الحسناء التي تركب إحدى السيارات في زهو وكبرياء...

بدأت الرغبة تلعب دورها على مسرح ذهنها وتيقظت أحلامها وتحفز قلبها لليقظة

وقد حرصت على الخروج كل يوم أحياناً مع الخادم أو الأخ وأحياناً أخرى بمفردها إذا انشغل هذا وتغيب ذاك

والوالدة لا ترى غضاضة في خروجها وحدها فقد كانت هي تخرج من قبل وحدها وصحة ابنتها أحب إليها من التقاليد والأوضاع وأحق من احترام تعاليم الوجود إن مانعت هذه التعاليم في رياضتها.

خرجت الفتاة خلية الذهن من اللؤم والخداع جاهلة أساليب الكذب والنفاق تحسب كل الأمور تجري بطبيعة الصدق والصراحة. وبدأت تتعثر في الطريق كلما عاكسها متطفل جريء ولكنها لم تحجم عن الخروج لأن الحياة الخارجية تكشفت لها عن روعة لم تتلمسها داخل دارها.

وبعد أيام تحسنت صحتها ففرح الوالد واطمأنت الأم وتفاءلت الابنة بمستقبل بهيج ولم لا تتفاءل وقد كانت تظن من قبل أنها ستموت قريباً أما اليوم فهي تشعر بالحياة. والقوة وتلمح وجنتيها المتوردتين في المرآة فتطرب وتتفاءل.

وهي في الطريق موضع نظرات كل من يمر بها وإن كانت لا تدري أهذه النظرات من فرط الإعجاب بجمالها. أو سخرية من احتشامها فإنها ما زالت تحتفظ باللباس المحتشم والخمار السميك على إنها استطاعت أن ترفعه في الظلام وفي الخلاء. ولشد ما كان يبهجها التنفس الطليق

وبينما كانت سائرة ذات يوم وحدها ضلت الطريق فراحت تنتقل من شارع إلى آخر لتخرج من المأزق حتى لمحت عن كثب منزل الطبيب وسرعان ما مر بذهنها طيفه فتوقفت مترددة حيال فكرة خالجتها. يمكنها أن تسأله من أين تسير إلى منزلها وتنتهز الفرصة لتقدم إليه الشكر الجزيل على حسن صنيعه

أتذهب إليه؟ قد يسيء الظن بها!

أتواصل المسير وهي تجهل الطريق؟ تخشى أن يطول بها التعثر أتسأل أحد المارة؟ قد يشاكسها

أتركب عربة توصلها إلى المنزل؟ لا تطمئن إلى الحوذي

في كل فكرة تراءت لها أشباح مساوئها مجسمة فخافت وارتعدت وأحجمت

أخيراً لمحت الطبيب يطل من الشرفة ناظراً إليها

لقد رآها بلا شك. أتذهب إليه؟ خير لها ألا تذهب لكي تحتفظ بكرامتها

وطال بها الوقوف بين الإقدام والإحجام. حتى سمعت صوتاً خفيتاً يقول – هل سيدتي في حاجة إلى خدمة؟

والتفتت فرأت خادم الطبيب

فتأهبت لكي تقول له. أريد أن أذهب إلى منزلي لأنني ضللت الطريق. ولكنها لم تقل بل سارت معه إلى منزل الطبيب الذي ظل في موقفه يرقبها

دخلت عليه متهيبة مترددة وقد أكسبها الخجل روعة وجمالاً فاستقبلها في لطف وحياها في أدب وسألها عن صحتها وما كادت ترفع الخمار

حتى قال. صحتك جيدة. جيدة جداً ولقد أكسبتك الصحة جمالاً أخاذاً ناضراً

وأطرقت الفتاة خجلة مغمغمه. بفضلك يا دكتور. ألف شكر لك وطلب إليها أن تستريح قليلاً. فترددت قائلة أريد أن أنصرف فهل لك أن تدلني على طريق منزلي لأنني ضللته. خفت أن أركب عربة فيحدث لي ما يحدث للفتيات أحياناً لأن السائق لا يؤمن جانبه في كل الأحوال - كما يقولون - وخفت أن أسأل أحد المارة فيفسر سؤلي تفسيراً سيئاً فيتبعني كما حدث لإحدى قريباتي وخفت أن أحضر إليك لما رأيت منزلك فتظنني متطفلة... ثم أطرقت خجلاً...

فقال في لطف وتواضع:

أبداً بل كان يسرني أن تأتي إلي من تلقاء نفسك لأنك بخوفك مني وضعتني في قائمة الآخرين

فارتبكت الفتاة وودت لو تقول شيئاً ولكن منطقها لم يسعفها فصمتت عن وعي وحيرة وخجل

فأدرك الطبيب ما دار بخلدها فقال:

في الواقع خروجك وحدك خطر فكيف أباح والدك الشيخ لك ذلك؟...

فريعت الفتاة، وقالت:

أخي على سفر والخادم مشغول وأبي لا يعلم بخروجي وحدي، وأنا طبعاً أعرف كيف أصون نفسي

فابتسم الطبيب قائلاً:

جميل أن تثقي بنفسك وتعتمدي على إرادتك وقوتك. ولكن حذار من الذئاب والشياطين إنهم ينصبون الشباك حول الفتاة بمهارة فائقة ويلقون الحب في طريقك ذو لون مغر وشكل جميل وطعم لذيذ فإذا التقطته تخدرت أعصابك واستسلمت، ومتى استسلمت وتلاشت إرادتك وأصبحت كالأخريات اللاهيات. أنا أنصحك بعدم الخروج وحدك لأن البيئة لم تهيئك منذ الصغر - كما علمت من صديقي - لمواجهة ضجيج الحياة وأكاذيب المجتمع ولم تسلمك سلاح الدفاع والحكمة لتحاربي بها كل مقتحم لئيم.

إنهم يلوحون بعصا الحب أمام أنظار الفتيات فإذا جذب الضوء عيون الحسان سرن على ضوئه في الطريق وهذا الحب الصناعي خدعة كبرى. فحذار حذار

فانزعجت عندما سمعت كلمة - الحب - وارتعشت وقد بدت حمرة الخجل على محياها الجميل وقالت بصوت خفيض:

أنا لا أعرف ذلك الذي يسمونه الحب!

فتنهد الطبيب وقال:

عل ذلك من بواعث نعيمك وإن كانوا يقولون الحياة بغير حب جهنم وبالحب جنة ونعيم.

وتنفس الصعداء ثم أعقب:

وقد يكون ذلك صحيحاً لو لم نفسده بشرور النفس الأمارة بالسوء

فريعت الفتاة وغمغمت:

ولم نكون أشراراً وفي وسعنا أن نكون أخياراً؟

فقال لها بصوت هادئ رزين:

إن الأنانية والجشع مبعث كل إثم والحرب الطاغية التي تقوم بين أمة وأمة كالصداع أو الخصام الذي يقوم بين نفس ونفس

فقاطعته الفتاة في سذاجة:

إنهم يعلموننا الأضاليل والمجون باسم الأدب والحرية. لقد قرأت في صحيفة كانت هنا عندك في غرفة الاستقبال يوم جئتك بحثاً طويلاً ودراسة وافية عن الحب ألا يعلم ذلك النفوس البريئة ما لم تعلم من إثم وبهتان

فضحك الطبيب لسذاجتها قائلاً:

الكاتب يا آنستي يكتب ليصلح وينشر ليرشد. فالذنب إذن ذنب القارئ الذي يفهم الأدب بظواهر الألفاظ كالطفل الذي يخلط بين بريق الذهب والنحاس ولا يستطيع أن يفرق بينهما. كل شيء في الحياة يا آنستي تلونه النفس بأصباغ شعورها ويكسبه الذهن طعم حلاوته أو مرارته أي جهله أو عرفانه فإذا عرفت ذلك - عرفت أن الحقائق ضائعة في غياهب النفوس أفهمت!؟

فهزت الفتاة رأسها متألمة وتجهم وجهها وغمغمت قائلة:

إنك تخيفني من الناس جميعاً

قال:

نعم أدعوك إلى الخوف منهم ولا تطمئني إلى أي بشري حتى ولو لبس مسوح الراهب أو الناسك أو الزاهد وفكري دائماً في أن الرجل ذئب والمرأة فريسته الذي يبحث عنها في كل مكان وهو لا يقنع بفريسة واحدة ملكاً خالصاً له. بل يشتهي دائماً أن يعب من دم كل فريسة ومع الأسف فريسته ذات دم معطر يجذب الذئب من بعيد

وهنا خافت الفتاة فوقفت رافعة وجهها إلى الله قائلة:

رحمتك يا الهي. لماذا خلقتنا إذن يارب؟ لقد طبعت على مخلوقاتك بعض سماتك فهل يمكن أن يكون الإنسان وغداً حقيراً وفيه قبس من نورك؟

فقاطعها الطبيب:

أنت ملك. وأرجو الله مخلصاً أن يحفظ لك طهرك، وأن يبعد عنك وسوسة الشياطين وإيعاوز الكائدين لقد ذكرتني بالروح الطاهر الذي فقدته

وأخفى وجهه ليواري دموعه

فتراجعت الفتاة وقد أيقظ حزنه البادي عطفها وقالت:

أي عزيز فقدته؟

فتنفس الطبيب بمرارة واستطرد:

روح كروحك لها طهر السماوات العلا

قالت:

أختك

فتنهد وهو يغالب دموعه:

الروح التي هدتني وأضلتني

فنظرت إليه دهشة ثم قالت:

إذا أساءت إليك بقدر ما أحسنت! لكن كيف يتفق الإحسان مع الإساءة؟

فقال في تأدب وهدوء:

أتسمحين بالجلوس بضع لحظات؟

إني أحس أنها أمامي ولو لم يكن للبعث آية لظننتها بعثت اليوم من جديد آه. أشعر الآن بأني أعيش في الماضي مغموراً بأحب الأنفاس الطاهرة العبقة

وهنا لمحت الفتاة ظلال الأسى مرتسمة على وجهه في شبه كلمات من الضوء تجذب قلبها في لين لطيف فعطفت عليه دون كلفة قائلة:

أترى فقدت أختك أو -

وشاءت أن تقول أمك لكنها خافت أن تكون أمه حيه فيؤلمه ذلك التخمين

قال:

لقد فتحت شغاف قلبي الآن بطهرك. لذا أريد أن أتنفس. أريد أن أروح عن نفسي التي لفها الحزن في بردي العذاب منذ أعوام - فليتك يا آنستي على تفهم ما أقول قديرة؟

فقاطعته:

لست غبية يا دكتور!

قال:

في الواقع أنا في حاجة إلى من يسمعني بقلب لم تشغله شواغل الحياة ولعل القدر بعثك اليوم إلى - فشكراً لله ولك والآن اسمعي لتعرفي أن حظ النفس الطاهرة في الوجود الحرمان والعذاب وأن الشيطان لا يحلو له إلا محاربة الأطهار

... ...

كنت طالباً بالمدرسة الثانوية يوم مرضت ابنة جارنا الفقير وكنت شغوفاً بمراقبة هذه العائلة من نافذة غرفتى التى تشرف عليهم وتكشف خباياهم

لذا سهل علي معرفة ما يعانيه أهل المريضة من عسر وضيق حتى صعب على الوالد أن يعالج ابنته بوساطة طبيب نبيل يتطوع لعلاجها بغير أجر

وضرب الدكتور جبينه بيده كأنه يبعد عن ذهنه ذكرى مؤلمة ثم استطرد. ما زلت أذكر يوم ذهبت للرجل قائلاً:

ألم تستدع لابنتك طبيباً؟

فقال:

وكيف أقدر على الطبيب الذي يأبى أن يتحرك من منزله إلا بعد أن أقدم له ما يرجو من المال. هل اكذب؟ هل أسرق؟ هل أغش؟ لا يمكنني أن أكون لصاً وقد ولدتني

أمي شريفاً وأنشأني والدي عفاً ثم بكى وهو يقول. أنا أغالب الفقر في جهد الجبابرة. وها هي ابنتي تموت تحت ناظري من جراء الفقر فما عساي أفعل. لقد كنت أباهي بفقري وأقول شرفي حسبي تصور يا ولدي إنني أقضي طوال اليوم أعمل في تنظيف الشوارع. لقاء دريهمات لا تكفي لسد رمقي وحدي. ومع ذلك أعيش مع زوجتي وأولادي قانعين بالقليل نأكل وجبة بسيطة ونترك أخرى ألا تراني كالقائد الذي يقاتل الأيام على أمل أن يهرع أخيراً بجيشه إلى الوكون تياها بشجاعته ونبله

كل شيء أتحمله يا ولدي. الجوع. العري. الحرمان إلا موت ابنتي. ذهبت بها إلى المستشفى فنظر إليها الطبيب في كبرياء وتمتم دعوها في المستشفى بضعة أيام تحت العلاج. ولم يحاول أن يعرف علتها بالضبط وهمس في أذني مساعد الطبيب: إن شئت أن تتعافى ابنتك فعالجها في مستشفى الطبيب الخاصة. العلاج هنا لا فائدة منه. ألوف من المرضى أفهمت. وغمز بعينه ومد لي يديه

فتنهدت وقلت: إلى الغد. وسحبت ابنتي وخرجت هارباً بها من الموت فقل لي بالله. أين أذهب. والطبيب يستغل واجبه لغايته الشخصية آه ما عساي أقول لك كثير. كثير جداً ولكنني محموم بسبب ابنتي

وانقطع الطبيب عن الكلام ليجفف مدامعه وليشفق على الفتاة التي بكت متأثرة ثم استطرد بصوت متقطع النبرات

كنت في هذه السن مشبوب العاطفة مليء النفس بالمثل العليا فملكني العطف على الرجل المسكين وأشفقت على الفتاة المريضة وصح عزمي على أن أساعدهم جهد استطاعتي وبدأت أدخر من مصروفي ورحت أكذب على والدي وأطالبه بنقود مدعياً إنها مطلوبة مني لقضاء لوازم مدرسية ثم أقدمها إلى والد المريضة فكان يتقبلها باكياً راجياً أن يردها إلي في مقبل الأيام عندما يتيسر له الحال

وأقسم لك إنني لم أفعل ذلك من أجل المريضة ولم أفكر فيها مطلقاً وإنما كان شاغلي الوحيد هو بؤس العائلة وما تكابده من آلام وحرمان بينما نتمتع نحن وأمثالنا بكل متع الحياة المشروعة وغير المشروعة وتفتح ذهني واتجهت مشاعري نحو مآس الحياة وما يعانيه البؤساء حتى أصبحت أعبر الطريق القصير في ساعات بدل دقائق معدودات كما كنت أفعل من قبل وذلك لأني تحولت إلى قوة مفكرة حساسة هائلة تتأمل كل مشهد وتتفرس في كل ظاهرة

نقمت على الأغنياء البخلاء - حتى على أبي - وقد كان الذهب الذي في خزانته كنار موقدة كلما لمحتها خيل إلى إنه نار تشتعل فكنت احترق وانصهر حتى تحولت إلى ثورة وتمرد

في خزانته عشرة آلاف من الجنيهات أقام نفسه حارساً عليها ليل نهار. وجارنا لا يملك قوت يومه

أي ظلم، أي بؤس، أي شقاء

أبي يملك هذه الألوف ويقضي طوال النهار نائم يغط كالبهائم وفي الليل يتمتع بكل ما يهوى من أطايب الوجود في الدار أو خارجها

وجارنا الفقير المحروم يكنس الطريق طوال النهار لقاء دراهم معدودات لا تكفي لسد حاجته وحده وهو مع ذلك لا يشكو ولا يتبرم ويعيش مع أسرته في هدوء كأنهم اتخذوا المجاعة ديناً

فكرت في لحظة جنون أن أقتل والدي ثم أوزع ماله على كل محروم يئيس ثم عادوني إيماني فعدلت وظننت أن لأبي العذر لأنه يعيش بمعزل عن الفقراء والبؤساء ولم يتذوق مرارة الحرمان ولم يشعر بألم الشقاء. وحاولت أن أوجه نظره إلى واجبه الإنساني ولا شك إنه سيرحم هؤلاء ويمنحهم مما وهبه الله، وجئته ذات مساء قائلاً أن جارنا الفقير يا أبتاه له ابنة مريضة يدنيها من القبر فقر والدها المدقع إذ ليس في مقدوره أن يعالجها عند طبيب

فاستفسر:

من؟

قلت:

جارنا المسكين. الكناس.

وعجبت في نفسي كيف تمر على هذا التجاور عشر سنين منذ اشترى والدي هذه الأرض وابتناها قصراً وحاول أن يشتري كوخ الفقير لكي يجعل منه حديقة رحيبة تتناسب مع قصرنا الشامخ. فامتنع الرجل وأبى أن يبيعه بمال قانعاً بالعيش فيه

عجيب. كيف ينكره أبي ولماذا يتجاهله؟!

وأخيراً هز رأسه ومط شفتيه وتمتم:

ليذهب بها إلى المستشفى

قلت:

الإهمال هناك يقضي على المحتاجين.

قال:

لا سبيل أمامه إلا ذاك

قلت في حدة:

نحن أغنياء وقليل من المال نبذله في سبيل إسعاده لا يضيرنا. بل من حقه علينا الرعاية والعطف. نحن أقوياء وهو ضعيف. أليس من الواجب العطف عليه على الأقل؟

فصرخ في وجهي:

أنت معتوه. إن هذا الفقير لا يعرف فلسفتك الجافة وهو قانع بحياته وليس هناك من يعيب عليه ظواهر الفقر، أما نحن فالعيون ترقبنا من كل جانب والحياة تطالبنا بنفقات باهظة تتناسب مع مركزنا. إذا حضر الوزير لزيارة البلدة من يرحب به؟ ومن يبذل المال الوفير لاستقباله. أليس الغني هو المطالب بذلك كله وهو الكفيل بالترحيب به واستقباله

فقاطعته:

يا أبي الغني هو الذي يجلب لنفسه هذا الزهو الباطل والظهور الكاذب، قل لي بالله ما الذي يجنيه الوطن من صرف مبالغ طائلة لعمل الحفلات وإقامة الزينات بينما البؤساء يتضورون جوعاً وينامون على الأرصفة بملابسهم البالية

انصرف الألوف لرفع أعلام الأضاليل وهناك منازل مغلقة على الظلام المدلهم. جوع ومرض وحرمان وسقم يملأ جنبات هذه المنازل بدل الأضواء الباهرة التي تشيع في الطرقات

أنصرف المئات لإقامة مأدبة واحدة لاستقبال عظيم أو للتعبير عن شعورنا طوعاً أو غصباً وهناك الملايين من الفقراء لا يملكون قوتاً ولا يجدون كسرة خبز

وصمت ملياً أفكر في طريق أنبه به عطفه عله يلين ويرحم بينما كان هو لاهياً عني بقراءة أخبار المساء وكل الذي يعنيه من هذه الأخبار أفراح فلان باشا ليهنئه ومصائب فلان باشا ليعزيه وعودة الوزير ليستقبله وسفر الوجيه ليودعه وأخيراً قلت:

أعرف أن في خزانتك ما يزيد عن عشرة آلاف و...

فقاطعني صارخاً:

أترصد مالي؟

قلت في خشوع:

لم أحاول رصده. إنما أريد أن أقول أن هذا المبلغ يمكن استخدامه كأداة صالحة لخير الوطن الكبير فتستفيد منه وتفيد أبناء وطنك العاطلين. هل لك أن تتخذ من طلعت باشا حرب وإخوانه قدوة صالحة؟ أخوف ما أخافه يا أبي أن تتفتح عقول الشباب قريباً عن أفكار ثائرة جائحة وتمرد محتجز فيحدث لأمثالك ما لا تحمد عقباه خيركم من نفع واستنفع فلم لا تكون من خير الرجال العاملين يا أبى؟

فانتصب ثائراً قائلاً:

أنت مجنون وخير لك أن تلتفت إلى دروسك بدل هذا السخف الذي تفكر فيه. إن الشاب منكم يظن نفسه أفلاطون عصره إذا عرف كيف ينتقي بعض الألفاظ من الكتب عن حق أو باطل.

ثم تركني وانصرف عني مزمجراً ساخطاً

خاب مسعاي ولم أستطع تلطيف مشاعر أبي فاضطررت أن آخذ كل ما تمتد إليه يدي من ماله أو مال أمي لأنفقه على هذه الأسرة المنكودة وعلى كل فقير محروم. وعشت مع هذه الأسرة الفقيرة برحمتي ووجداني حتى طغت الروحانية على المطامع المادية وتفتحت مشاعري على سرائر الوجود واستطعت أن أعرف أسباب الشقاء الإنساني وبواعث الجرائم والمحن.

إثرة وأنانية وجشع، كل هذه النقائص تكيف حياة الغني وتضع أمام ناظريه غشاوة كثيفة من الجمود والظلم والقسوة مع ذلة ومسكنة

يشملهما حقد وتبرم يلازمان مشاعر الفقير فلا هو مشمول بالرحمة فيقنع ولا هو مكفول بالرعاية فيطمئن وكان لابد أن أحارب نزعات المؤثرات الخارجية نزعات مؤثرات بيئتي القاسية حتى انتصرت أخيراً واستطعت أن أنزع الغطرسة والنفاق والكبرياء والطمع والقسوة من قلبي حتى أصبح قصرنا العظيم ومركز والدي الرفيع وجاهنا التليد أعظم جرماً من مساوئ الفقراء إذا اقترفوا إثماً وبهتاناً في ناظري

ولما انتهيت من دراستي الثانوية ودفعني تأثري من طمع الأطباء أن أتعلم الطب لكي أكون رحيماً ورسول خير لكل من تعوزه معونة طبيب، وكنت في ذلك الوقت قد تعلقت بابنة الجار ولكنني كتمت عنها هواي لكي لا أشوه طهرها أو أخرج بها من معبد براءتها وصومعة قناعتها إلى دنيا أحلام الشباب الطائشة المزعجة وقد فهمت بإحساسي أن الفتاة أحبتني ولكنها أخفت عني حبها ولم تحاول أن تصارحني به خجلاً وحياء وظناً منها إنه لا يمكن أن أبادلها الهوى أو أنظر إلى حبها بعين الارتياح لما بيننا من فارق مادي

وما زلت أدين بحياتي إلى القوة العاطفية التي كانت تهيب بي دائماً إلى الكفاح والنضال والعمل المتوالي دون نصب أو ملل لكي أبلغ غايتي المرجوة لقوة هذه الفتاة الروحية

حتى نلت إجازة الطب وصح عزمي على تنفيذ المنهج الذي رسمته لنفسي

وشاء أبي أن يفتتح عيادتي في أجمل حي من الأحياء الأرستقراطية، فأبيت واتخذتها في حي من أحياء الفقراء...

فاستنكر أبي تصرفي وأفهمني إنه لا يليق بابن فلان باشا أن يتخذ عيادته في حي حقير وحاول أن يثنيني عن عزمي بشتى الطرق فلم يفلح وولجت طريقي من غير تهيب وبدأت أقوم بعملي على الوجه الذي برضي ضميري

غضب أبي وقطع عني مساعدته المالية فلم أحفل ووطنت النفس على الجهاد والاعتماد على عزيمتي وحدها وتوهمت إني لن أعدم علاج بعض الأغنياء فيعينني ذلك على معالجة الفقراء بلا أجر بقدر المستطاع

لكن. مع الأسف- لم يطرق باب عيادتي مريض واحد من الأغنياء وعرفت أخيراً أن مظاهر الجاه والشهرة السبب القوي في تكييف حياتنا الاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية...

لم يطرق بابي أي رجل غني أو وجيه لأنني أعالج الفقراء والفقير لا يعرف كيف ينفخ في بوق الشهرة الكاذبة بأسلوب الرياء المعسول فلو إنني عالجت - فلان باشا - لملأ أسمي الأسماع ولكنت أنبغ طبيب وهرع إلي كل عظيم، أما وإنني أطبب الفقراء فمعنى ذلك إنني غبي جهول

الف سوأه لظواهر هذا المجتمع بقدر ما فيها من بريق خلاب فيها مصائب للأبرياء الوادعين

لم يحزنني هذا الجحود لأنني استعضت عنه معرفة وخبرة وفلسفة فاستطعت أن أعرف في شهور ما كان يصعب على معرفته في أعوام لو عشت بعيداً عن الاتصال بالفقراء وتفهمهم عن كثب

تلمست بيدي الجثث التي تسير عليها أقدام الأغنياء في غير رحمة ولا خوف من الله العلي القدير... لكأنهم بخور الأسى المريع الذي يرتفع إلى السماء مكفراً عن جرائم طغاة الأحياء... ولطالما نفخت في بوق الرحمة والرجاء عل صوتي يبلغ آذان قساة الأثرياء فكان الأثير يرجع آهاتي... لأنهم مع الأسف صم بكم لا يبصرون

رضيت بالحياة المتواضعة قانعاً بربحي البسيط سعيداً بخدمة المرضى التعساء، وقد تزوجت ابنة جارنا المسكين مفضلاً الفتاة العفة الفقيرة المخلصة على الفتاة المستهترة الثرية الجاحدة وقد كانت زوجتي عند حسن ظني فمنحتني كل ما اشتهيه من حب وما أطمع إليه من طمأنينة وهناءة. ولما علم والدي بزواجي جن جنونه وجاهد لكي يحول دون تحقيقه فلم أدع له مجالاً للمحاولة ولم أعبأ بتهديده الذي يلجأ إليه كل غني قادر ظاناً أن منعه ابنه من الميراث يغير مجرى تفكيره وذلك شأن العاطل الجاهل الضعيف أما أنا فقوتي وإيماني أجل من ثراء العالمين لو تجمع تحت يدي

أصبحت في عرف العائلة كبيرها وصغيرها... مخطئاً مجرماً... لأنني هبطت من مستواي الرفيع إلى حضيض امرأة فقيرة كما يزعمون. ولقد استطاعت زوجي بإخلاصها وحنانها وقلبها وتفكيرها قادرة على أن تملأ فراغ حياتي فلم أشعر بأي فراغ وكانت تدفعني دائماً إلى طريق العمل الإنساني المنتج

... ...

في يوم جاءني رجل لا أعرفه ودعاني لزيارة مريض فقير مشرف على الهلاك وأفهمني إنه عثر عليه ملقى في الطريق يئن ويتوجع أمام داره وأن المريض هو الذي طلبني لأنه يتفاءل بي لما سمعه عني وهو مستعد لتقديم الجزاء المادي لقاء أتعابي فأكبرت الرجل ولم أشأ أن أكون أقل منه رحمة وكرماً فأفهمته أن واجبي يحتم علي رعاية المريض ويلزمني العناية بالفقير دون أجر، وقطعنا الطريق في حديث عابر حتى وقفت بنا السيارة أمام منزل في حي مجهول لم أعرفه وتقدمني الرجل إلى داخل الدار مسرعاً ثم سأل خادمه أين المريض يا ولد: فأجابه الخادم في عجلة كأنه متأهب لهذا السؤال لقد خرج تواً يعدو كالمجنون وقد حاولت أن أمنعه فغلبني وخرج مسرعاً. فزمجر الرجل وضرب خادمه لإهماله واعتذر لي في لطف وأفهمني إنه أشد تألماً مني إذ كان يسعده أن يقوم بخدمة إنسانية ثم دعاني لتناول قدح من القهوة ريثما يخرج الخادم للبحث عنه ولعله يجده

فلبيت دعوته وجلسنا نتحدث في مآسي الإنسانية وكان الرجل يتنهد في مرارة ولم يحاول أن يرفع نظره في وجهي وقد فسرت ذلك لخجله من تبديد وقتي سدى وعندما تشعب بنا الحديث ووصل إلى نقائص المجتمع ومساوئ الآدميين وكيف طغى الكذب والنفاق والحسد والضغينة والحقد والأنانية على الفضائل العليا. أطرق الرجل صامتاً وتنفس الصعداء وتمتم... أنت نبيل يا دكتور ولا تستحق إلا كل خير وليت الإنسان في مقدوره أن يغالب الأهواء ولا يتأثر بمغريات الحياة حتى يصون نفسه وغيره ليت ذلك في مقدور الإنسان

إلى هنا قطعت الحديث لاضطراري إلى عيادة مريض ورجوته أن يأتي بالمريض إلى عيادتي ويترك لي شأنه معتمداً على الله وعلي

وعادت بي السيارة من طريق آخر كثير الالتواء حتى بلغت منزلي وشئت أن أرد مجاملة الرجل فاعتذر مرجئاً زيارتي إلى وقت آخر ولم يدعني أُلح عليه بل حرك سيارته واختفى في لمح البصر

ولقد أفزعني السكون المخيم على داري وغلق جميع النوافذ على غير العادة وكنت أترقب أن أرى زوجي مهرولة إلي··· ولكنها لم تفعل وكان المفروض أن يفتح الباب بمجرد دق الجرس ولكن الباب لم يفتح وقد طال طرقي عليه في شدة··· تذكرت المفتاح الذي معي ففتحت الباب وناديت الخادم فلم يلب النداء فهرولت إلى مخدع زوجي ظناً مني إنها نائمة

يا للصدمة الهائلة المروعة

(وصمت الطبيب ملياً مطرقاً في وجوم مخيف وهو يحز على شفتيه ثم أعقب)

لا يمكنني استرجاع هذا الخيال··· إنه كالسهم المسموم زوجتي مضطجعة على ظهرها··· وعلى وسادتها (طربوش رجل)

(صعقت الفتاة فتمتمت بصوت مخنوق رباه ماذا تقول)

قال:

رجل ظننته عاشقها جاءها خلسة

وقد استطاع أن يهرب عندما سمع نفير السيارة بلا ريب ولما كنت أشبه بالموتى لفقد قوتي من تأثير الصدمة لم أتمكن من عمل أي شيء

وسمرت في مكاني وأنا أنظر إليها في صمت أشبه بسكون من فقد حسه ووعيه ولم أتنبه إلا على أصوات الجيران. لص أم مريض مجنون؟ لقد قذف بنفسه من نافذة بيت الدكتور وتعالى صوت بالصراخ سيارة من هذه الذي تلقفته؟ - وها هي قد اختفت. سلوا الدكتور من يكون؟ وهرع بعض الجيران يسألني: فقلت مخبول. مخبول أين هو؟ فقالوا كأنه كان على موعد مع بعض الناس، لم يكد يرمي بنفسه حتى تلقفته الأيدي وحملته في السيارة وقال بعضهم لقد رأيت هذه السيارة عندما خرجت فيها منذ ساعة وقد عدت فيها الآن. أليس كذلك؟ فتمتمت: أجل. أجل. وتركتهم معتذراً وهرعت إلى زوجي، كيف أتركها نائمة في فراشي بعد أن دنسته؟ وكيف هان علي أن أحتمل رؤيتها مرة أخرى على هذه الصورة؟ لم أكن في حالتي الطبيعية بالتأكيد كنت في حلم مزعج مخيف وأخيراً فقدت قواي، ودون تردد استودعت صدرها رصاصة العدم في سكون. لم تتحرك ولم تصرخ، ولم تفتح ناظريها ولم تفه بأي كلمة!

وظللت في موقفي فاقد الرشد والإحساس أشبه بالأموات حتى نبهني الخادم قائلاً: سيدي مريض يدعوك! وظل يردد الكلمة بلهجته النوبية وهو يتأملني كالمشدوه وأخيراً صرخت في وجهه: قل له الدكتور ليس هنا. ليذهب إلى غيري، اقفل العيادة! لا تسمح لأي مخلوق مهما كان بالدخول! أخرج المرضى وقل لهم أن الدكتور قد سافر إلى غير عودة! أفهمت؟ ورحت أهزه في عنف وقسوة بغير وعي حتى سقط

المسكين على الأرض ثم انتصب وخرج وهو زائغ البصر فاغر فاه لا يجرؤ على الكلام ولا يقوى على الحركة تم تذكرت عدم وجود الخادم الخاص بالمنزل وقت دخولي فناديته وسألته موقناً بأن سيدته كانت أرسلته إلى الخارج لقضاء أي شيء ليخلو لها المنزل مع عشيقها فأجابني الخادم في غير تردد أو تفكير أو تمعن جاء رجل وطلب مني أن أذهب إلى ميدان المحطة لأن حضرتك تنتظرني في الكازينو هناك وأفهمني بضرورة الذهاب عاجلاً فذهبت تم ارتعش الولد وأردف ولكنني بحثت عن حضرتك فلم أجدك مطلقاً وهأنذا عدت فماذا يطلب سيدي؟

رجل دعاه وآخر دعاني، ما هذا السر؟ إذن كانت دعوة الرجل نكاية أيضاً، آه لقد تسرعت كان يجب أن اسأل المجرمة قبل أن تموت. من يكون العشيق وكيف دخل وهل كان يستغفلني من زمن بعيد؟ أكان يعرفها قبل الزواج؟ وكيف تعرف عليها. آه لو لم أكن أحببتها كل الحب وتركت عشيرتي وأهلي من أجلها لركلتها بقدمي كالكلب القذر وتركتها لذئاب الشوارع: ثم تقدمت في جنون نحوها أهزها في عنف وأحركها في قسوة، علها تحيا بضعة دقائق ثم تموت ولتذهب إلى جهنم، ولكن برودة العدم كهربت أعصابي فانتفضت وتراجعت وأنا شارد كالمعتوه. وفجأة وقع نظري على هدية ثمينة ملقاة على الأرض كأن يداً ألقتها عمداً تأملتها حتى اهتديت أخيراً إلى اسم الصائغ بحروف تكاد لا تظهر. كل الخواطر ملكتني حتى ارتميت على المقعد أبكي كالطير المذبوح، وفجأة دخل خادمي مسرعاً يعلن مقدم أخي الأكبر فارتفع الدم في رأسي أخي يحضر الآن! ولماذا؟ إنه لم يزرني مطلقاً منذ تزوجت: لم يطل بي التفكير لأنه دخل دون استئذان. ولما

لمحني كالمحموم وقف أمامي مشدوها قائلاً: أخي. أمريض أنت؟ والتفت إلى السرير: أم زوجك المريضة، ولما وقع نظره على الدم الذي يسيل من صدرها صرخ بغير صوت: ما هذا؟ واقترب منها: قائلاً في هلع مقتولة! ومن الجاني؟ فنظرت إليه في وجوم وغمغمت مرددا: أنا القاتل!

فترفق بي قائلاً: مسكين. مسكين، ماذا حدث؟ لابد إنها خانتك! لا غرابة. امرأة حقيرة. لا تحزن لتذهب مع الشيطان إلى جهنم. دع دفن جثتها النتنة لي. وحاول أن يقودني إلى غرفة أخرى فأبيت ممانعاً تحت تأثير شعور مبهم خاص، وجلست أمام الجثة أتأملها ولست أدري كيف كان شعوري وقتذاك؟ كنت فاقد الرشد والإدراك لكنني شاعر بكل ما حولي

قام أخي بمهمة الدفن في عجلة وساعده المال الموفور على تنفيذ أوامره دون أي شك أو ارتياب! وكان ينتهز فرصة وجومي فيهمس في أذني: كان المفروض أن تفهم من قبل أن هذه المرأة غير جديرة بك. ومرة أخرى يقول: أعرفت أن المرأة الفقيرة لا تصلح لرجل غني! ثم يقول: لقد ضحيت عائلتك وسمعتك في سبيل عاهرة! لا تحزن. فلتذهب في ذمة الشيطان

لا أنكر إنني كنت مليء الصدر باحتقارها ومقتها ولكن هذا الكلام كان يلطف هذا الحقد كأنه مرهم يمسح به جرحي. وزاد شكي تعقيداً وغموضاً عندما لمحت أخي يرفع الوسادة في حذر وهو يرقبني وقد غضضت الطرف عنه لأشعره إنني لم أره ثم تناول ورقة من

تحت الوسادة وأخفاها. رباه؟ ما الذي يدور في رأسي! لقد خطر لي خاطر ولعب الشك بعقلي!

استجمعت قواي وتكلفت البشر ساخراً. لقد استرحت الحمد لله، لتذهب إلى جهنم. وتصنعت الهدوء والاطمئنان فاطمأن أخي وراح يحدثني في شبه دعابة ليرفه عني. رجوته أن ينام معي ليبدد خواطري المزعجة فلم يمانع. مرت الساعات وأنا أضحك في جنون والله وحده هو العليم ما يجول في نفسي إلى أن حان ميعاد النوم فتناومت حتى تأكدت من استغراق أخي في نوم عميق: فتسللت في حذر ثم فتشت محفظته فوجدت الورقة

زوجي المحبوبة

سيحضر إليك أعز أصدقائي في الوجود. رحبي به وأحسني استقباله ومعاملته ودعيه في المنزل حراً يجلس في أي غرفة يشاء ينام حيثما أحب. في مخدعك أو مخدعي. ستجدين في قربه أخاً لطيفاً وديعاً واقبلي منه هديته واستمتعا بالوقت ريثما أحضر فقد يطول بي الغياب

زوجك:

مختار

كنت اقرأ والحروف ترقص أمام ناظري، رسالة إلى زوجي مني: الخط يشبه خطي وكذلك التوقيع. كيف حدث هذا؟

رباه. انقذني بحكمتك! صعقت وبدأت الخواطر تتوارد أمام ذهني أيكون أخي باعث الجاني وسبب هذه النكاية؟ لكن هذا لا يمكن أبداً. أبداً، تركت الغرفة لأن مظهره في نومه الهادئ كان يفزعني ويخيفني وينبه جنوني وانزويت في غرفة أخرى مفكراً. لم يكد النهار يظهر حتى تركت منزلي دون علم أخي وهرولت إلى السوق أبحث عن الصائغ. وبعد عناء وجدته ولما سألته عن مشتري الهدية، ذكر لي اسم أخي! أيمكنك أن تتصوري شعور من يحكم عليه والده بالإعدام لغير ذنب أو جريرة؟

بأقصى سرعة عدت إلى منزلي وقد صح عزمي على قتل أخي. أجل لابد من قتله، كنت أسابق قوة الموت في الطريق حتى بلغت المنزل فدخلت عليه وقد ملكتني قوى العالمين. ولكنني لم أجده لقد خرج منذ ساعة! وتقدم مني الخادم قائلاً: وجدت هذه الزجاجة ملقاة بجانب السرير. تأملتها فإذا هي سائل مخدر. في التو فهمت لماذا ماتت زوجتي بسرعة إذ كانت في شبه إغماء بسبب هذا المخدر. إذن لم ينل منها المجرم وطره إلا بعد تخديرها

رباه. رباه. رباه. أنت وحدك الرحيم، لقد ماتت شهيدة إذن لم تذنب وكنت المجرم، رب، رب رحماك

زوجي بريئة وأنا القاتل، وأخي قاتلنا. ظل هذا الخاطر مرتسماً أمام عيني مسرعاً ذهبت إلى منزل العائلة مردداً: أخي أخي واستوقفني الخادم قبل أن أصعد الدرج: لقد طلبناك في التليفون فلم نجدك: والدك يطلبك. إنه يحتضر: والدي يحتضر ويطلب رؤيتي

ولما رآني الشيخ بكى وأمام جلال الموت تلاشت إرادتي الجامحة ونسيت رغبتي الملحة في الانتقام.

وهمس الشيخ أخيراً:

اقترب مني يا ولدي دعني أقبلك إنك أنبل أولادي، أنت فخري وحسبي تركت لك وحدك كل ثرائي ليحفظ بعيداً عن الدنس أعف عن أخيك لقد أساء التصرف. بحسن نية يا ولدي دفعته كنت أريد أن أزوجك فتاة كريمة لكن أخاك تعجل في غير روية أو تفكير أعف عنه يا ولدي. إن الخمر أفسدت قلبه والميسر أفسد عقله أعف عنه وعني وإن كنت لم أرغب في موتها كنت أريد أن تسرحها سراحا جميلاً وحرماني منك هو الذي دفعني للحرص عليك

أعف عني يا ولدي

وخرجت روحه بطيئة كأنها تنتظر مني العفو

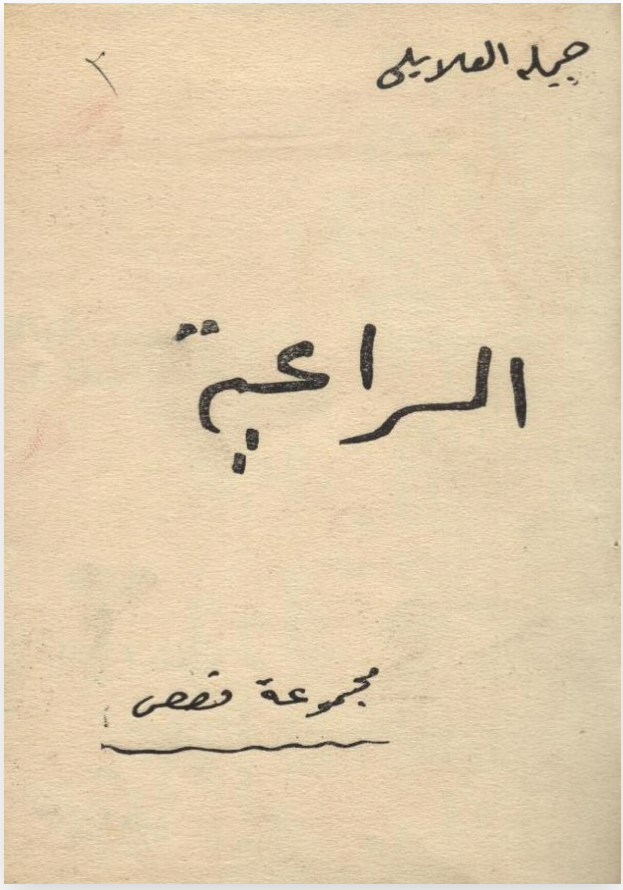
ردتني رهبة الموت إلى عقلي فبكيت والدي ونسيت جرم أخي ولكنني ظللت حتى الآن لا أذكر أبي ولا أحب أخي ووقفت حياتي على ذكرى الشهيدة وتركت الطب أيضاً إذ لم تعد لدي قوة فكرية أو بدنية أستعين بهما على القيام بعملي على الوجه الأكمل إذ تنتابني من آن لآن بعض نوبات عصبية وأخشى أن تعاودني النوبة وبين يدي مريض فأقضي عليه ولم تعد الحياة إلا مرحلة لابد من اجتيازها رغماً عني وإن كان حبي للفقراء لم ينقص بل ازداد قوة وإيماناً لأنني

ازددت حباً للشهيدة ولطالما سولت لي نفسي الانتقام من أخي كلما فاض حزني على فراقها الأبدي

لكن خيالها كان يتراءى لي من وراء الأفق نورانياً قائلاً: أعف عنه لقد بعثني إلى السماء

منذ ذلك اليوم أحبت الفتاة الطبيب حباً قوياً أكيداً وبدأ الطبيب يبادلها الحب في طهر وهدوء وقد نسيت الفتاة أوهامها به

حتى جاءته يوماً فوجدته مهموماً محزوناً فبادرته ماذا دهاك فلم ينظر إليها وتمتم لقد رأيتها في المنام معرضة عني قائلة لقد مت في سبيلك شهيدة فهل يصعب عليك أن تعيش في سبيلي شهيداً؟ وبكى الطبيب وهو يقول سأترك الحياة وأختفي في صومعة فتعلقت به الفتاة قائلة وأنا أتتركني: فغمغم بصوت مخنوق أريد أن أعيش شهيداً فقد ذهبت في سبيلي شهيدة!



الغلاف الأصلي ١٩٤٦